القَلبُ في القُرآن

وأثرُه في سُلوك الإنسَان

بقلم

الدكتور/ سيد محمد ساداتي الشنقيطي

أستاذ الإعلام الإسلامي المشارك

بجامعة الإمام

محمد بن سعود الإسلامية

دار عالم الكتب

للطباعة والنشر والتوزيع

الرياض

بسم الله الرحمن الرحيم

القلب في القرآن

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

١٤١٤هـ - ١٩٩٣م

المقدمة

إن الحمد لله نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونتوب إليه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ (١) .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ ﴾ (٢) . ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ ﴾ (٣) .

---

(١) سورة آل عمران الآية: ١٠٢ .

(٢) سورة النساء الآية: ١ .

(٣) سورة الأحزاب الآيتان: ٧٠، ٧١ .

والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد ﷺ الذي أنزل الله علينا قرآناً به تحيا القلوب أما بعد (١).

فإن من أقوم المناهج في إقامة الحياة على أسس صحيحة أن تعرض وقائعها ومشكلاتها على القرآن الذي يهدي للتي هي أقوم في كل شأن من شئونها ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾﴾(٢) بحيث يمكن فهم الوقائع والمشكلات فهماً سديداً ويجد الناس للمشكلات حلاً رشيداً.

ولكن هذا المسلك القويم عزّ من يأخذ به في يوم الناس هذا من جراء الإيقاع السريع للحياة بسبب طغيان الاتجاه المادي.

---

(١) بما قبل الصلاة على النبي ﷺ كان النبي عليه الصلاة والسلام يفتتح خطبته أياً كان موضوعها وسماها العلماء خطبة الحاجة وهي هنا من باب التأسي والاقتداء.

(٢) سورة الإسراء الآية: ٩.

ولما كنت ممن منّ الله عليه بمعايشة كتاب الله معايشة تدبر وتفكر ـ أسجّل هذا شكراً لله سبحانه وتعالى وإظهاراً لنعمته عليّ عملاً بقوله جلّ جلاله ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾ ﴾(١) وممن يتابعون وقائع الحياة ومشكلاتها سعياً وراء فهم صحيح وعلاج ناجع يسهم في مساعدة الناس والتخفيف من معاناتهم(٢)، فقد عنّ لي وأنا أشعر بوطأة الاتجاه المادي في الحياة اليوم كما يشعر به غيري من الخاصة والعامة، وكما شعر به العلماء العاملون إبان شيوعه من مثل الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله، وذلك حيث يقول «وما أشبه زماننا هذا بهذا الوصف الذي ذكره(٣) ﷺ فإنه ما بقي من

---

(١) سورة الضحى الآية: ١١.

(٢) وذلك ما ينبغي أن يشغل بال العلماء والدعاة والمصلحين باعتبارهم معقد الأمل بعد الله ومصابيح الدجى.

(٣) يشير إلى قوله ﷺ: «يأتي على الناس زمان القابض على دينه كالقابض على الجمر» رواه أبو داود وقال الشيخ الألباني إنه صحيح لغيره وذلك في سلسلة الأحاديث الصحيحة (٢/ ٩٥٧).

الإسلام إلا اسمه، ولا من القرآن إلا رسمه، إيمان ضعيف، وقلوب متفرقة، وحكومات مشتتة وعداوات وبغضاء باعدت بين المسلمين وأعداء ظاهرون وباطنون، يعملون سراً وعلناً للقضاء على الدين وإلحاد وماديات جرفت بخبث تيارها وأمواجها المتلاطمة الشيوخ والشبان. ودعايات إلى فساد الأخلاق، والقضاء على بقية الرمق. ثم إقبال الناس على زخارف الدنيا بحيث أصبحت هي مبلغ علمهم وأكبر همّهم ولها يرغبون ويغضبون ودعاوى خبيثة للتزهيد في الآخرة، والإقبال بالكلية على تعمير الدنيا وتدمير الدين، واحتقاره والاستهزاء بأهله وبكل ما ينسب إليه، وفخر وفخفخة، واستكباراً بالمدنيات المبنية على الإلحاد التي آثارها وشرورها قد شاهدها العباد(١) عنّ لي أن أتعمق أسبابه

---

(١) بهجة قلوب الأبرار وقرة عيون الأخبار في شرح جوامع الأخبار ص ٣٦٨، ٣٦٩، دار الريان للتراث، القاهرة، وأشار الشيخ سعيد حوى رحمه الله إلى غلبة الماديات وتبرج الشهوات وظهور زينة الحياة الدنيا في عصرنا هذا أكثر من أي عصر مضى في نظره =

وأدواءه وأدويته ومظاهره من خلال عرض وقائع حياتنا على كتاب الله سعياً وراء تشخيص الداء ووصف الدواء وكانت النتيجة المباشرة لتعمق الواقع من خلال تدبر نصوص قرآنية كثيرة أن أمراض القلوب سبب لكثير من المشكلات في حياة الناس اليوم، وأن مناط السعادة في الدارين إنما هو القلب الطاهر السليم. وأن كثيراً من الناس عن هذا غافلون، يحفلون بالظاهر دون الباطن، والحال أن كتاب الله وهو بين أيديهم ما فتىء يحدّثهم عن القلوب من حيث أصنافها، وأحوالها (١) وأسباب

= (الربانية ص ١٠٣، دار السلام، ط ١، وكذلك أشار الشيخ عبد الرحمن عبد الخالق إلى أهمية بعث أداب السلوك والخلق في أمتنا الآن (خطوط رئيسية لبعث الأمة الإسلامية ص ٨٣، الدار السلفية، الكويت، كما أشار إلى هذا الواقع الدكتور كمال محمد عيسى في كتابه (خصائص مدرسة النبوة ص ٢٣ ـ ٣٧، دار الشروق).

(١) كل تلك المعاني ذكرها الدكتور ناصر العمر وفقنا الله وإياه في محاضرة قيمة له بعنوان امتحان القلوب.

تلك الأحوال وأثرها في سعادة الإنسان وشقائه حديثاً يستوقف كل من له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد. فكان لا بد في نظري من تناول قضية القلوب من خلال القرآن تناولاً قريب المأخذ يمكّن عامة الناس من إدراك مكانة القلب في حياتهم ويوجّه إلى العناية به بغية الصلاح والفلاح[1]. فقليل منا اليوم من يتفقد قلبه، بل قليل منا من يتوقف ليسأل نفسه ماذا فعلت بقلبي؟ وماذا فعل قلبي بي. والحال أن القلب موضع الفتنة والابتلاء[2]، لذلك توجهت النية إلى تأليف هذا الكتاب الذي أسأل الله أن يجعله عملاً صالحاً خالصاً لوجهه الكريم وأن ينفع به المسلمين. وهو مشتمل على مقدمة

---

(١) لقد شغلت بهذه القضية قرابة السنتين وجعلتها موضوعاً لخطبة الجمعة في أماكن مختلفة وتناولتها في محاضرات عامة مرات أيضاً.

(٢) موقفنا من قلوبنا هذا أيضاً ذكره الدكتور ناصر العمر في محاضرته المشار إليها من قبل.

وفصلين وخاتمة، أما المقدمة فهي التي مضت وأما الفصلان فأولهما جعلته لأحوال القلوب وضمّنته جملة مباحث اقتضتها طبيعة المعالجة، والثاني خصّصته لتأثر سلوك الإنسان بحال القلب وجاءت الخاتمة تركيزاً للمعاني التي تضمنها الكتاب.

الفصل الأول

القلوب في القرآن

وفيه خمسة مباحث:

المبحث الأول: المراد بالقلب.
المبحث الثاني: أنواع القلوب.
المبحث الثالث: مظاهر القلوب.
المبحث الرابع: أمراض القلوب.
المبحث الخامس: أدوية القلوب.

المبحث الأول

المراد بالقلب

وفيه:

- ♥ الأختلاف حوله.
- ♥ دلالة القرآن.
- ♥ دلالة السنة عليه.
- ♥ بعض الأقوال فيه.
- ♥ القول الفصل في ذلك.

المبحث الأول: المراد بالقلب

هناك آراء عديدة حول المراد من القلب، وهي وإن اختلفت حول ماهية القلب هل هو العضو المادي أو جهاز إدراكي معرفي فإنها لم تختلف حول كونه مكمن المشاعر والأحاسيس وأنه رأس أعضاء الإنسان وموطن الإيمان والكفر.

وما يهمنا فيما نحن بصدده هو المعنى الذي يحدّده القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، وبالرغم من أن الدكتور محمد الشرقاوي قال في بيان مدلول القلب في القرآن «مما تجدر الإشارة إليه أن كلمة قلب بالرغم من أنها قد ذكرت في القرآن الكريم - في حالات الإفراد والتثنية والجمع أكثر من مائة وثلاثين مرة إلا أنه لم يقصد بها مطلقاً الدلالة على القلب بمعناه التشريحي الطبي، ولكن قصد بها التعبير عن جهاز إدراكي معرفي بالغ التعقيد له وظائف متشعبة ومتعددة ومتداخلة إلى حد

بعيد جداً، كما أن له خصائص قد انفرد بها ولم يشاركه فيها أي من الملكات الأخرى(١) وركز في تأملاته على وظيفتين من وظائفه هما:

١ ـ الإدراك والمعرفة والعلم.

٢ ـ الإيمان وما يتصل به من عاطفة ووجدان وإرادة(٢).

فإن الأمر على خلاف ما ذكر من الجزم بأنه لم يقصد في القرآن مطلقاً الدلالة على القلب بمعناه التشريحي الطبي، فقد تتبعت النصوص القرآنية التي وردت فيها لفظة القلب(٣) لتحديد مدلول القلب فيها فوجدت نصين يفصلان في هذا الأمر فصلاً بيناً هما قوله

---

(١) تأملات حول وسائل الإدراك في القرآن الكريم ص٤٣ ـ عالم الكتب، الرياض المؤلف.

(٢) المرجع السابق المدرك نفسه.

(٣) بلغت هذه النصوص مائة وستا وعشرين آية في ثلاث وأربعين سورة من كتاب الله، وقد جمعها لي المرحوم محمد عمار السالك الذي توفاه الله وهو يستعد لبدء دراسته العليا بقسم الأعلام بالكلية بعد أن تخرج منه ولم يفته رحمه الله منها إلا آيات معدودة.

تعالى ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ ﴾(١) وقوله تعالى ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔي تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي ٱلسَّبِيلَ ﴿٤﴾ ﴾(٢) فهما ينصان صراحة على أن المراد بالقلب هو هذا العضو المادي الذي مقره الصدر وهو ما نص عليه المفسرون. قال النسفي في تفسير آية الحج «وذكر الصدر لبيان أن محل العلم القلب ولئلا يقال إن القلب يعني به غير هذا العضو كما يقال القلب لب كل شيء»(٣) وقريب من ذلك ما ذهب إليه الرازي في تفسير الآية حيث قال «وعندي فيه وجه آخر وهو أن القلب يجعل كناية عن الخاطر والتدبر كقوله تعالى ﴿ إِنَّ

---

(١) سورة الحج الآية: ٤٦.

(٢) سورة الأحزاب الآية: ٤.

(٣) تفسير النسفي جـ ٣، ص ١٠٥، دار الكتاب.

فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾(١).

وعند قوم أن محل التفكر هو الدماغ فالله تعالى يبين أن محل ذلك هو الصدر. .

هل تدل الآية على أن العقل هو العلم وعلى أن محل العلم هو القلب؟ الجواب «نعم لأن المقصود من قوله يعقلون بها العلم وقوله يعقلون بها كالدلالة على أن القلب آلة لهذا العقل فوجب جعله محلاً للعقل»(٢).

ومن ذلك يتضح أن المفسرين في الجملة يقفون عند صريح دلالة الآية على معنى القلب وهو أنه العضو المادي الموجود داخل صدر الإنسان وإن تفاوتت عباراتهم في ذلك(٣) أما آية الأحزاب فهي صريحة

(١) سورة ق الآية: ٣٧.

(٢) التفسير الكبير، المجلد الثاني عشر ص ٤٥، دار إحياء التراث العربي.

(٣) بآية الحج هذه فسر الشيخ محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله قوله تعالى: ﴿ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل =

الدلالة على المعنى السابق، فقد قال ابن كثير رحمه الله في تفسيرها «يقول تعالى موطئاً قبل المقصود المعنوي أمراً معروفاً حسياً وهو أنه لا يكون للشخص الواحد قلبان في جوفه»(١) وهو ما ذهب إليه كل من الجلالين والشوكاني وإن اختلفا في سبب نزول الآية(٢).

وهذا المعنى الذي دل عليه القرآن الكريم هو الذي جاءت به السنة المطهرة فقد روى البخاري من حديث النعمان بن بشير - رضي الله عنه - قوله: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الحلال بيِّن والحرام بيِّن وبينهما أمور مشبهات لا يعلمها كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه ومن وقع في الشبهات كراع يرعى حول الحمى يوشك أن يواقعه ألا وإن لكل

= سبيلاً﴾ ورد بها أقوال الفلاسفة بشأن مكان العقل أضواء البيان جـ ٥/ ٧١٥ وجـ ٣/ ٥٦٢.

(١) تفسير القرآن العظيم جـ ٣/ ٤٦٥، دار المعرفة.

(٢) انظر: زبدة التفسير من فتح القدير ص ٥٤٨، وانظر الجلالين ص ٣٥٠، دار الفكر العربي.

ملك حمى ألا وإن حمى الله محارمه ألا وإنّ في الجسد مضغةً إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب»[1] .

ولا عبرة بعد هذا بقول، فالذي يرى أن القلب المراد تطبيبه ليس هو العضو المادي «بل كل ما يسمى أحاسيس الإنسان ومشاعره وهواجسه، من حبٍّ وبغض وإيثار وحسد، وروحانية وصلافة، وقوة وضعف، وإيمان وكفر، وثبات وقلق، ويقين وشك، ورضى وسخط، ونور وظلمة وما إلى ذلك»[2] وكذلك من يقول إن القلوب كما وردت في كتاب الله ما هي إلا قلوب الروح، فكما أن القلب النابض في الجسم هو رمز الحياة والموت فإن القلب في الروح هو رمز الإيمان والكفر[3]

(١) صحيح البخاري ـ كتاب الإيمان ـ باب: فضل من استبرأ لدينه.
(٢) د. عجيل جاسم النشمي ـ طب القلوب ص ١٣.
(٣) السيد/ إبراهيم سليم، من خفايا القلوب في القرآن ص ١١٧، مكتبة التراث الإسلامي، القاهرة.

لن يجد بغيته خارج هذا العضو، «فالله جلّ جلاله» جعل هذه القلوب أوعية فخيرها أوعاها للخير والرشاد، وشرّها أوعاها للغيّ والفساد وسلط عليها الهوى وامتحنها بمخالفته[1] ولهذا اعتبر صلاح القلوب ولادة جديدة[2] ذلك أن «القلب إنما خلق لأجل حب اللّه تعالى وهذه هي الفطرة التي فطر اللّه عليها عباده»[3] ومن هنا لزم الاهتمام به ورعايته والمحافظة على صحته وسلامته، وحمايته عن المؤذي الضار به.

---

(١) د. عجيل جاسم النشمي ـ طب القلوب ص ٣٢٢.

(٢) قال ابن قيم الجوزية: «سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله يذكر ذلك ويفسره بأن الولادة نوعان أحدهما هذه المعروفة، والثانية ولادة القلب والروح وخروجهما من مشيمة النفس وظلمة الطبع، قال الولادة لما كانت بسبب الرسول ﷺ كان كالأب للمؤمنين، المرجع السابق ص ٣٤٨.

(٣) مجموع الفتاوى جـ ١٠ / ١٣٤.

المبحث الثاني

أنواع القلوب

وفيه:

♥ أنواع القلوب باعتبار أصحابها.
♥ أنواع القلوب باعتبار حالها.
♥ أنواع القلوب باعتبار صفاتها.
♥ أنواع القلوب باعتبار لونها.
♥ أنواع القلوب باعتبار تأثرها بالحق.
♥ أنواع القلوب باعتبار آثارها.

أولاً: أنواع القلوب باعتبار أصحابها:

لقد تدبرت النصوص القرآنية التي وردت فيها لفظة القلب إفراداً وتثنية وجمعاً فوجدت أن القلوب قد جاءت فيها باعتبار أصحابها على ثلاثة أنواع: قلوب المؤمنين، وقلوب الكافرين، وقلوب المنافقين.

وتتنوع قلوب كل فريق من هؤلاء تبعاً لدرجاتهم في الإيمان ودركاتهم في الكفر والنفاق[1] فمن قلوب المؤمنين قلب الرسول ﷺ ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ ﴾[2] ﴿ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ ﴾[3] ﴿ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ

(١) اعتمدت في التقسيم المذكور على ثلاثة تفاسير هي تفسير الجلالين وزبدة التفسير من فتح القدير والمنتخب في التفسير.

(٢) سورة البقرة الآية: ٩٧.

(٣) سورة آل عمران الآية: ١٥٩.

لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾ ﴾(١) ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ ﴾(٢) ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٤﴾ ﴾(٣) وهو لا شك أطهر القلوب وأزكاها ومنها قلب أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾ ﴾(٤) ﴿ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ ﴾(٥) وليس بعد شهادة الله لهذا القلب الزكي شهادة.

---

(١) سورة آل عمران الآية: ١٦٠.

(٢) سورة الشعراء الآيات: ١٩٣ ـ ١٩٤ ـ ١٩٥.

(٣) سورة الشورى الآية: ٢٤.

(٤) سورة البقرة الآية: ٢٦٠.

(٥) سورة الصافات الآيتان: ٨٣، ٨٤.

ومنها قلوب الصحابة رضوان الله عليهم ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾(١) ﴿ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ ﴾(٢) ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾ ﴾(٣) ﴿ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ

---

(١) سورة آل عمران الآية : ١٠٣ .

(٢) سورة آل عمران الآية : ١٢٦ .

(٣) سورة آل عمران الآية : ١٥٤ .

قُلُوبُكُمْۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾ (١)
﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً
لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ
وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ ﴾ (٢) ﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى
ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْۚ
إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾ ﴾ (٣) ﴿ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ
عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾ ﴾ (٤) ﴿ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ
لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّۚ ﴾ (٥) ﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى
كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ
وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾
فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةًۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨﴾ ﴾ (٦) ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ

---

(١) سورة الأنفال الآية: ١٠.
(٢) سورة الأنفال الآية: ١١.
(٣) سورة الأنفال الآية: ٦٣.
(٤) سورة التوبة الآية: ١٥.
(٥) سورة الأحزاب الآية: ٥٣.
(٦) سورة الحجرات الآيتان: ٧، ٨.

يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾ ﴾(١) ﴿ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾ ﴾(٢) ﴿ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ ﴾(٣) ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِىِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ ﴾(٤) ﴿ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ ﴾(٥).

وهذه القلوب من أبرّ القلوب بعد الأنبياء صلوات

(١) سورة الحجرات الآية: ٣.
(٢) سورة التحريم الآية: ٤.
(٣) سورة الفتح الآية: ١٨.
(٤) سورة التوبة الآية: ١١٧.
(٥) سورة الأحزاب الآية: ١٠، ١١.

الله وسلامه عليهم وأكثرها زكاة وطهارة وسلامة ومنها قلوب خاصة المؤمنين ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٨﴾﴾ (١) ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾﴾ (٢) ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِي ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ (٣) ﴿مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾﴾ (٤). وهي قلوب كما ترى حية تدفع أصحابها إلى الحركة والإيجابية ومنها قلوب المؤمنين الصادقين ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ

---

(١) سورة آل عمران الآيتان: ٧، ٨.

(٢) سورة المؤمنون الآيتان: ٦٠، ٦١.

(٣) سورة الحج الآيتان: ٣٤، ٣٥.

(٤) سورة ق الآية: ٣٣.

دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ (١) ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ
ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ (٢) وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن
رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟
إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾ (٣) ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ
بِٱلْإِيمَٰنِ﴾(٤) إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ (٥) . ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ
ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ
ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن
يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾ (٦) هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ
ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾ (٧) ۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ

---

(١) سورة الأنفال الآيات: ٢ ـ ٤ .

(٢) سورة الرعد الآية: ٢٨ .

(٣) سورة الحج الآية: ٥٤ .

(٤) سورة النحل الآية: ١٠٦ .

(٥) سورة الشعراء الآية: ٨٩ .

(٦) سورة الزمر الآية: ٢٣ . (٧) سورة الفتح الآية: ٤ .

ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلۡحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ
أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلُ فَطَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَمَدُ فَقَسَتۡ قُلُوبُهُمۡۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ
فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ (١) لَّا تَجِدُ قَوۡمٗا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ
يُوَآدُّونَ مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوۡ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ أَوۡ أَبۡنَآءَهُمۡ
أَوۡ إِخۡوَٰنَهُمۡ أَوۡ عَشِيرَتَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ
وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ وَيُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ
خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ
حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿٢٢﴾ (٢) وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ
يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا
تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾ (٣)
وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿١١﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ
وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۚ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ
ٱلۡمُبِينُ ﴿١٢﴾ (٤) ومنها قلوب المسلمين الذين لم يدخل

---

(١) سورة الحديد الآية: ١٦.

(٢) سورة المجادلة الآية: ٢٢.

(٣) سورة الحشر الآية: ١٠.

(٤) سورة التغابن الآية: ١١.

الإيمان إلى قلوبهم بعد ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾﴾ (١)، ومنها قلوب أصحاب الكهف ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾﴾ (٢). ومنها قلوب حواريي عيسى عليه السلام ﴿قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾﴾ (٣)، وقلوب أتباعه عليه السلام ﴿وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا

---

(١) سورة الحجرات الآية: ١٤.

(٢) سورة الكهف الآيتان: ١٣، ١٤.

(٣) سورة المائدة الآية: ١١٣.

﴿تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٢٨﴾ (١) ومنها قلب أم موسى ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًاۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١٠﴾ (٢) ومنها قلوب الملائكة ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ۝٢٣ ۞ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ قُلِ ٱللَّهُۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٢٤﴾ (٣)، وحسب هذه القلوب فخراً أنها كانت عدة أصحابها في تحقيق طاعة الله ونيل مرضاته بما جعل فيها من صلاح وزكاة وطهارة وفي ذلك ما فيه من تمييز لها عن قلوب الكافرين التي أودت بأصحابها إلى النار أعاذنا الله منها.

وكما تعددت قلوب المؤمنين وفقاً لدرجاتهم في الإيمان فإن الكفر درجات مما يترتب عليه تنوع قلوب

---

(١) سورة الحديد الآية: ٢٧.
(٢) سورة القصص الآية: ١٠.
(٣) سورة سبأ الآية: ٢٣.

الكافرين يوم بعث ﷺ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٦ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ۝٧﴾(١) ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمۡعَكُمۡ وَأَبۡصَٰرَكُمۡ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِهِۗ ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ ثُمَّ هُمۡ يَصۡدِفُونَ ۝٤٦﴾(٢) ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُ إِلَيۡكَۖ وَجَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗاۚ وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَاۚ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝٢٥﴾(٣) ﴿إِذۡ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمۡ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ سَأُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ فَٱضۡرِبُواْ فَوۡقَ ٱلۡأَعۡنَاقِ وَٱضۡرِبُواْ مِنۡهُمۡ كُلَّ بَنَانٖ ۝١٢﴾(٤) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝٧٠﴾(٥) ﴿كَيۡفَ وَإِن يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ لَا

---

(١) سورة البقرة الآيتان: ٦، ٧.
(٢) سورة الأنعام الآية: ٤٦.
(٣) سورة الأنعام الآية: ٢٥.
(٤) سورة الأنفال الآية: ١٢.
(٥) سورة الأنفال الآية: ٧٠.

يَرْقُبُواْ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨﴾ ﴾(١) ﴿ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾(٢) ﴿ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْاْ عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾ ﴾(٣) ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ ﴾(٤) ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ﴾(٥) ﴿ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّواْ النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ هَلْ هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٣﴾ ﴾(٦) .

﴿ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا

---

(١) سورة التوبة الآية: ٨.

(٢) سورة النحل الآية: ٢٢.

(٣) سورة الإسراء الآية: ٤٦.

(٤) سورة الكهف الآية: ٢٨.

(٥) سورة الكهف الآية: ٥٧.

(٦) سورة الأنبياء الآية: ٣.

عَـٰمِلُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾(١) ﴿ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِي ٱلشَّيْطَـٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي
قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ﴾(٢) ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَـٰذَا
ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ
أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا
يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾(٣) . ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ
ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ
يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾(٤) ﴿ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ
وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا
عَـٰمِلُونَ ﴿٥﴾ ﴾(٥) .

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنْ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ
أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓاْ
أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾ ﴾(٦) ﴿ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ

---

(١) سورة المؤمنون الآية : ٦٣ .
(٢) سورة الحج الآية : ٥٣ .
(٣) سورة الروم الآيتان : ٥٨ ، ٥٩ .
(٤) سورة الزمر الآية : ٤٥ .
(٥) سورة فصلت الآية : ٥ .
(٦) سورة محمد الآية : ١٦ .

حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾ ﴾ (١) . ومنهم عامة الكافرين ﴿ أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ ﴾ (٢) ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾(٣) ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴿٢٤﴾ ﴾(٤)، ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا ﴾(٥) ومنهم المرتدون ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٠٨﴾ ﴾(٦)، ومنهم فرعون وملؤه ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ

---

(١) سورة الفتح الآية: ٢٦ .

(٢) سورة الزمر الآية: ٢٢ .

(٣) سورة الجاثية الآية: ٢٣ .

(٤) سورة محمد الآية: ٢٤ .

(٥) سورة الأعراف الآية: ١٧٩ .

(٦) سورة النحل الآية: ١٠٨ .

وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ ﴾[1]، ومنهم الفجار ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ ﴾[2]، ومنهم المجرمون ﴿ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِي قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ ﴾[3] ﴿ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِي قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ ﴾[4]. ومنهم كفار الأمم السابقة ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾ ﴾[5] ﴿ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾[6]

---

(١) سورة يونس الآية: ٨٨.

(٢) سورة المطففين الآية: ١٤.

(٣) سورة الحجر الآيتان: ١٢، ١٣.

(٤) سورة الشعراء الآيتان: ٢٠٠، ٢٠١.

(٥) سورة البقرة الآيتان: ١١٨، ١١٩.

(٦) سورة الأنعام الآية: ٤٣.

﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ
أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ تِلْكَ
ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا
كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ
قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾ ﴾[1] ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ
فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ
عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾[2]، ومنهم أهل الكتاب ﴿ ثُمَّ قَسَتْ
قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا
يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا
يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾[3] ﴿ وَقَالُوا۟
قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾[4]
﴿ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ
بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم
مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن
دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾ ﴾[5]

---

(١) سورة الأعراف الآيتان: ١٠٠، ١٠١.
(٢) سورة يونس الآية: ٧٤.
(٣) سورة البقرة الآية: ٧٤.
(٤) سورة البقرة الآية: ٨٨.
(٥) سورة البقرة الآية: ٩٣.

﴿ وَقَوۡلِهِمۡ قُلُوبُنَا غُلۡفُۢۚ بَلۡ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيۡهَا بِكُفۡرِهِمۡ ﴾(١) ﴿ فَبِمَا نَقۡضِهِم مِّيثَٰقَهُمۡ لَعَنَّٰهُمۡ وَجَعَلۡنَا قُلُوبَهُمۡ قَٰسِيَةٗۖ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ﴾(٢) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَلَمۡ تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْۛ سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوۡمٍ ءَاخَرِينَ ... أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمۡۚ ﴾(٣) ﴿ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمۡ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَ فَرِيقٗا تَقۡتُلُونَ وَتَأۡسِرُونَ فَرِيقٗا ﴿٢٦﴾ ﴾(٤) ﴿ أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلۡحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلُ فَطَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَمَدُ فَقَسَتۡ قُلُوبُهُمۡۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ﴾(٥)، ﴿ لَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرٗى مُّحَصَّنَةٍ أَوۡ مِن وَرَآءِ جُدُرِۭۚ بَأۡسُهُم بَيۡنَهُمۡ شَدِيدٞۚ تَحۡسَبُهُمۡ جَمِيعٗا وَقُلُوبُهُمۡ شَتَّىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡقِلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾(٦)

---

(١) سورة النساء الآية : ١٥٥ .

(٢) سورة المائدة الآية : ١٣ .

(٣) سورة المائدة الآية : ٤١ .

(٤) سورة الأحزاب الآية : ٢٦ .

(٥) سورة الحديد الآية : ١٦ .

(٦) سورة الحشر الآية : ١٤ .

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾ ﴾[1]، ومنهم المتكبرون الجبّارون ﴿ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ ﴾[2]، ومنهم المؤلفة قلوبهم ﴿ ۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ ﴾[3]، وأصحاب هذه القلوب على تعدد أصنافهم يشتركون في أنهم موتى القلوب كما أخبر الله عنهم ﴿ ۞ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ ۘ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾[4] ويكفي هذه القلوب سوءًا أنها أدخلت من مات من أصحابها على الكفر النار التي يحتل المنافقون الدرك الأسفل منها عياذاً بالله.

وكما تفاوتت دركات الكفر تفاوتت دركات النفاق، وكان المنافقون ولا يزالون وسيظلون أحقر الأصناف البشرية

---

(١) سورة الصف الآية: ٥.
(٢) سورة غافر الآية: ٣٥.
(٣) سورة التوبة الآية: ٦٠.
(٤) سورة الأنعام الآية: ٣٦.

وأخطرها تأثيراً في حياة المجتمعات الإسلامية، ومن العجب أننا نأمن على أنفسنا من النفاق في حين كان كثير من الصحابة الأجلاء يخشون على أنفسهم منه[١].

وقد فضح اللّه المنافقين في عهده ﷺ وكشف دخيلة نفوسهم بما عرض في الكتاب الكريم من خفايا قلوبهم وخصائصها ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُواْ فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُواْ غُزًّى لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾ ﴾[٢] ﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ قَٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُواْ ۖ قَالُواْ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ

(١) قال الإمام البخاري في صحيحه باب: خوف المؤمن من أن يحبط عمله وهو لا يشعر. قال إبراهيم التيمي: ما عرضت قولي على عملي إلا خشيت أن أكون مكذباً. وقال ابن أبي مليكة: أدركت ثلاثين من أصحاب النبي ﷺ كلهم يخاف النفاق على نفسه ما منهم أحد يقول إنه على إيمان جبريل وميكائيل، وذكر عن الحسن ما خافه إلا مؤمن ولا آمنه إلا منافق (كتاب الإيمان).

(٢) سورة آل عمران الآية: ١٥٦.

وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾﴾[1] ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ . . إلى قوله جلّ جلاله: أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾﴾[2] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ﴾[3] ﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾[4] ﴿إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾﴾[5] ﴿إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ

---

(١) سورة آل عمران الآية: ١٦٧ .

(٢) سورة النساء الآيات: ٦٠ ـ ٦٣ .

(٣) سورة المائدة الآية: ٤١ .

(٤) سورة المائدة الآية: ٥٢ .

(٥) سورة الأنفال الآية: ٤٩ .

يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾[1] ﴿ يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ
سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا
تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾[2] ﴿ ۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن
فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ .. إلى قوله جلّ
جلاله: فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا
وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾[3] ﴿ وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ
ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا۟
ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ
قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾[4] ﴿ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ
يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ۚ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ
ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾[5] ﴿ لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى
بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ
حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾ ﴾[6] ﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ

---

(١) سورة التوبة الآية: ٤٥. (٢) سورة التوبة الآية: ٦٤.
(٣) سورة التوبة الآيات: ٧٥ ـ ٧٧.
(٤) سورة التوبة الآيتان: ٨٦، ٨٧.
(٥) سورة التوبة الآية: ٩٣. (٦) سورة التوبة الآية: ١١٠.

زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًاۚ . . إلى قوله سبحانه وتعالى: صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾﴾[1] ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَۚ . . إلى قوله تعالى: بَلْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾﴾[2]، ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾﴾[3]، ﴿۞ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾﴾[4] ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾﴾[5] ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِۖ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ . . إلى قوله جلّ جلاله: وَٱللَّهُ يَعْلَمُ

---

(١) سورة التوبة الآيات: ١٢٤ ـ ١٢٧ .

(٢) سورة النور الآيات: ٤٧ ـ ٥٠ . (٤) سورة الأحزاب الآية: ٦٠ .

(٣) سورة الأحزاب الآية: ١٢ . (٥) سورة محمد الآية: ١٦ .

أَعۡمَٰلَكُمۡ ﴿٣٠﴾﴾[1]، ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلۡمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ شَغَلَتۡنَآ أَمۡوَٰلُنَا وَأَهۡلُونَا . . إلى قوله سبحانه وتعالى: وَكُنتُمۡ قَوۡمَۢا بُورٗا ﴿١٢﴾﴾[2] ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ ﴿٣﴾﴾[3].

فتبين من النصوص السابقة أن المنافقين في عهده ﷺ كانوا أصنافاً كثيرة، ومن أصناف المنافقين الوارد ذكرها في القرآن الكريم عموم المنافقين ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَمَا هُم بِمُؤۡمِنِينَ ﴿٨﴾ . . إلى قوله تعالى: وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ ﴿١٠﴾﴾[4] ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ . . إلى قوله جلّ جلاله: فَحَسۡبُهُۥ جَهَنَّمُۚ وَلَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾﴾[5] ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ

---

(١) سورة محمد الآيات: ٢٠ ـ ٣٠.

(٢) سورة الفتح الآيتان: ١١، ١٢.

(٣) سورة المنافقون الآية: ٣.

(٤) سورة البقرة الآيات: ٨ ـ ١٠.

(٥) سورة البقرة الآيات: ٢٠٤ ـ ٢٠٦.

إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ . . إلى قوله سبحانه وتعالى: لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾﴾[1] ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً . . إلى قوله جلّ جلاله: وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾﴾[2]، ومن ذلك ندرك أن الصفة الجامعة لهذه القلوب هي مرض الشك والريب في الحق عياذاً باللّه وهي علة تؤدي إلى فساد العلم والقصد.

---

(١) سورة الحج الآيتان: ٥٢، ٥٣.

(٢) سورة المدثر الآية: ٣١.

ثانياً: أنواع القلوب باعتبار حالها

لقد ظهر من خلال تدبر النصوص القرآنية التي سيقت من قبل بشأن أنواع القلوب باعتبار أصحابها أن القلوب تنقسم باعتبار حالها إلى ثلاثة أقسام هي القلب السليم أو القلب الحي وهو قلب المؤمن، ويقابله القلب الميت وهو قلب الكافر والقلب المريض وهو قلب المنافق وهو قلب مريض بالشبهة ويلحق به القلب المريض بالشهوة، ومن هنا صح لابن القيم رحمه الله أن يقول: «لما كان القلب يوصف بالحياة وضدها انقسم بحسب ذلك إلى هذه الأحوال الثلاثة: فالقلب الصحيح هو القلب السليم الذي لا ينجو يوم القيامة إلا من أتى به كما قال سبحانه: ﴿يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم﴾(١) والسليم هو السالم. وجاء على هذا المثال لأنه للصفات كالطويل والقصير والظريف فالسليم القلب الذي قد صارت السلامة صفة ثابتة له كالعليم والقدير

(١) سورة الشعراء الآيتان: ٨٨، ٨٩.

وأيضاً فإنه ضد المريض والسقيم والعليل، وقد اختلفت عبارات الناس في معنى القلب السليم. والأمر الجامع لذلك أنه الذي قد سلم من كل شهوة تخالف أمر الله ونهيه ومن كل شبهة تعارض خبره، فسلم من عبودية ما سواه، وسلم من تحكيم غير رسوله فسلم من محبة غير الله معه، ومن خوفه ورجائه والتوكل عليه والإنابة إليه والذل له وإيثار مرضاته في كل حال والتباعد عن سخطه بكل طريق، وهذا هو حقيقة العبودية التي لا تصلح إلا لله سبحانه وتعالى وحده.

فالقلب السليم هو الذي سلم من أن يكون لغير الله فيه شرك بوجه ما، بل قد خلصت عبوديته لله: «إرادةً ومحبةً وتوكلاً وإنابةً وإخباتاً وخشيةً ورجاءً أخلص عمله لله، فإن أحبّ أحبَّ في الله، وإن أبغض أبغض في الله، وإن أعطى أعطى لله، وإن منع منع لله، ولا يكفيه هذا حتى يسلم من الانقياد والتحكيم لكل من عدا رسول الله ﷺ»(١).

---

(١) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان جـ ١ ص ١١، ١٢، طبع المكتب الإسلامي - بيروت ومكتبة الخاني الرياض، بتحقيق محمد عفيفي.

وهذا الذي قاله رحمه الله زُبدة ما يمكن استخلاصه من النصوص التي سيقت من قبل في معرض الحديث عن قلوب المؤمنين.

«والقلب الثاني ضد هذا وهو القلب الميت الذي لا حياة به فهو لا يعرف ربه ولا يعبده بأمره وما يحبّه ويرضاه بل هو واقف مع شهواته ولذّاته، ولو كان فيها سخط ربه، وغضبه فهو لا يبالي إذا فاز بشهواته وحظه رضي به أم سخط فهو متعبد لغير الله، حباً، وخوفاً ورضاً، وسخطاً، وتعظيماً، وذلاً. إن أحب أحب لهواه، وإن أبغض أبغض لهواه، وَإِنْ أعطى أعطى لهواه، وإن منع منع لهواه، فهو آثر عنده وأحب إليه من رضا مولاه، والهوى إمامه، والشهوة قائده، والجهل سايسه، والغفلة مركبه. فمخالطة صاحب هذا القلب سقم ومعاشرته سم، ومجالسته هلاك»[1].

ولعمرو الله إن ما قاله رحمه الله هو زُبدة ما يمكن استخلاصه من النصوص السابقة بشأن قلوب الكافرين، بل

---

(١) المرجع السابق ص ١٣.

صريح نص القرآن ﴿والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم﴾[1].

«والقلب الثالث قلب له حياة وبه علة، فله مادتان، تمده هذه مرة وهذه أخرى، وهو لما غلب عليه منهما»[2].

وعلى هذا فالقلوب بالنسبة لحالها ثلاثة قلوب حي مجيب لين داع هو قلب المؤمن، والثاني قلب ميت يابس هو قلب الكافر، والثالث مريض هو قلب المنافق وصاحب الهوى، وقد جمع الله هذه الأصناف الثلاثة في قوله جل جلاله: ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته فينسخ الله ما يلقى الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم ليجعل ما يلقى الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم وإن الظالمين لفي شقاق بعيد وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم وإن الله لهادي الذين آمنوا إلى صراط

---

(١) سورة محمد الآية: ١٢.

(٢) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان ص ١٤.

مستقيم﴾[1]

«فالمفتونان القلب الذي فيه مرض والقلب القاسي والناجي القلب المؤمن المخبت إلى ربه وهو المطمئن إليه الخاضع له المستسلم المنقاد، وذلك أن القلب وغيره من الأعضاء يراد منه أن يكون صحيحاً سليماً لا آفة به، يتأتى منه ما هيء له وخلق لأجله، وخروجه عن الاستقامة إما يبسه أو قساوته وعدم التأتي لما يراد منه»[2].

وهذه القسمة الثلاثية باعتبار أصل كل نوع من حيث الحياة والموت والمرض، إلا أن القلب المريض ليس على حال واحدة، ومن هنا كانت فالقلوب باعتبار حالها أربعة كما أخبر الرسول ﷺ في الحديث الذي رواه أحمد عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «القلوب أربعة قلب أجرد فيه مثل السراج يزهر وقلب أغلف مربوط على غلافه وقلب منكوس وقلب مصفح، فأما القلب الأجرد فقلب المؤمن سراجه فيه

---

(١) سورة الحج الآيات: ٥٢ ـ ٥٣ ـ ٥٤.
(٢) ابن قيم الجوزية ـ إغاثة اللهفان جـ ١ ص ١٤، ١٥.

نـوره، وأمـا القلب الأغلف فقلب الكـافـر، وأمـا القلب المنكوس فـقلب المنافق عرف ثم أنكر، وأما القلب المصفح فقلب فيه إيمان ونفاق، فمثل الإيمان فيه كمثل البقلة يمدّها الماء الطيب، ومثل النفاق فيه كمثل القرحة يمـدها القيـح والدم، فأي المدتين غلبت على الأخرى غلبت عليه»[١].

ومع أن القسمة النبوية رباعية كاشفة عن حقيقة أحوال القلوب فإن الزيادة فيها تفصيل في النوع الثالث وهو القلب المريض، والسنة كما هو معلوم مبينة للقرآن الكريم ﴿وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون﴾[٢].

وانقسـام الـقلوب إلـى حي ومـيت ومـريض لـيس استخلاصاً واستنتاجاً من النصوص القرآنية السابقة فحسب، بل هو صريح القرآن الكريم ﴿إنما يستجيب الذين يسمعون والموتى يبعثهم الله ثم إليه يرجعون﴾[٣]. ﴿أو من كان ميتاً

---

(١) المسند جـ٣ ص ١٧، وفيه ليث بن أبي سليم وهو مسيء الحفظ وقد اختلط.

(٢) سورة النحل الآية: ٤٤.

(٣) سورة الأنعام الآية: ٣٦.

فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون﴾ [1]. ﴿اعلموا أن الله يحي الأرض بعد موتها﴾ [2] بعد الحديث عن موت قلوب أهل الكتاب أي كذلك يحي الله القلوب ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ﴾ [3].

«وأعلم أن حياة القلب وحياة غيره ليست مجرد الحس والحركة والإرادة أو مجرد العلم والقدرة كما يظن ذلك طائفة من النظّار في علم الله وقدرته كأبي الحسن البصري.

قالوا إن حياته أنه بحيث يعلم ويقدر. بل الحياة صفة قائمة بالموصوف، وهو شرط في العلم والإرادة والقدرة على الأفعال الاختيارية. والحياء مشتق من الحياة، فإن القلب الحي يكون صاحبه حياً، فيه حياء يمنعه من القبائح التي تفسد القلب. ولهذا قال النبي ﷺ: «الحياء من الإيمان» وقال

(١) سورة الأنعام الآية: ١٢٢.
(٢) سورة الحديد الآية: ١٧.
(٣) سورة البقرة الآية: ١٠.

الحياء والعي شعبتان من الإيمان والبذاء والبيان شعبتان من النفاق. فإن الحي يدفع ما يؤذيه بخلاف الميت الذي لا حياة فيه فإنه يُسمى وقحاً والوقاحة الصلابة وهي اليبس المخالف لرطوبة الحياة، فإذا كان وقحاً يابساً صليب الوجه لم يكن في قلبه حياة توجب حياءه وامتناعه عن القبائح»[1]. وانقسام القلوب إلى قلوب حية وقلوب ميتة وأخرى مريضة لا يعني ثبات كل نوع على وصفه: «بل إن القلب بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبه كيف يشاء»[2] ولذلك كثر في دعائه ﷺ قوله: «يا مقلِّب القلوب ثبت قلبي على دينك»[3]. فقد يموت القلب الحي وقد يحيا القلب الميت وقد يصحّ القلب المريض.

الحديث عن حياة القلب وموته ومرضه ليس المقصود

---

(١) شيخ الإسلام ابن تيمية ـ الفتاوى جـ ١٠ ص ١٠٩ تصوير الطبعة الأولى عام ١٣٩٨ هـ.

(٢) رواه مسلم بلفظ: «إن قلوب بني آدم كلها بين أصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرفه كيف شاء» صحيح مسلم كتاب القدر.

(٣) أخرجه الترمذي وصححه الألباني ـ صحيح الجامع الصغير (٧٨٦٤).

منه الجانب الحسي، وإنما الحياة المعنوية والموت المعنوي والمرض المعنوي كذلك. وهو في الحقيقة ما عليه المدار فكم من صاحب قلب سليم حسياً أشد قسوة من الذي قد مات قلبه حسياً، وكم من صاحب قلب مريض حسياً وهو أشد ما يكون صحة وسلامة معنوياً[1] وكم من صاحب قلب حي حياة معنوية مات حسياً فكانت حياة قلبه المعنوية سبباً في حياة أبدية سعيدة ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياءٌ عند ربهم يرزقون﴾[2].

ومن أسباب حياة القلوب الإقبال على الله وتعظيمه وتدبر الوحي بشقيه القرآن والسنة والشوق إلى الله، والإنابة

(١) وهذا أمر مشاهد فقد كنت في غرفة الإنعاش بعد إجراء عملية جراحة للقلب أواخر شهر شعبان عام ١٤١١ هـ وأنا في غاية الغبطة والسرور بنعمة الإيمان التي من الله عليّ بها وحرم منها من كان يقوم على خدمتي في تلك الغرفة وكنت أشعر بكمال حياتي وأنا على تلك الحالة من المرض وموتهم وهم على تلك الحال من الحياة الحسية.

(٢) سورة آل عمران الآية: ١٦٩.

إليه، والندم على المعاصي، والحذر من الوقوع فيها، ومخالفة هوى النفس والاستعداد للآخرة وصحبة الصالحين.

ومن أسباب موت القلوب الغفلة عن الله، وإيثار محبوب سوى الله، وترك اغتذاء بنافع وترك الدواء الشافي (الوحي وذكر الله) وكثرة الضحك. وأما حقيقة مرض القلب فهي فقدان الإخلاص لله والحب له وجامع أمراض القلوب اتباع الهوى[١]. نسأل الله أن يحيي قلوبنا بنور معرفته وذكره وشكره، فحياة القلب وإشراقه مادة كل خير وموته وظلمته مادة كل شر[٢].

---

(١) انظر: إغاثة اللهفان جـ ١ ص ١١ وما بعدها.

(٢) المرجع السابق ص ٣١.

ثالثاً: أنواع القلوب باعتبار صفاتها

هناك علاقة وثقى بين حالة القلب وصفاته، فحياة القلب تضفي عليه من الصفات ما يناسب الحياة، وموت القلب يكسبه صفات تناسب الموت. وكذا مرض القلب يجعل له من الصفات ما ليس للقلب السليم ولا للقلب الميت.

وهذا أمر يكاد يكون من المسلمات، ولكن لا مانع مع ذلك من إقامة الدليل عليه من خلال استنطاق النصوص القرآنية التي سيقت في معرض بيان أصحاب القلوب باعتبار الإيمان والكفر والنفاق. لنرى أهم الصفات التي تحدد في مجملها نوع القلب وحالته ليكون المرء على بينة من أمره عند عرض قلبه عليها فيحافظ على قلبه إن كان سليماً ويبحث له عن دواء إن كان سقيماً، ويسعى لإعادة الحياة إليه إن كان قد مات عياذاً بالله، وليس المراد هنا حصر الصفات، وإنما بيان نوع القلب من خلال ما يتصف به.

وأجمع صفات قلوب المؤمنين وهي القلوب الحية هي صفة السلامة[1] ﴿يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم﴾ ﴿وإن من شيعته لإبراهيم إذ جاء ربه بقلب سليم﴾.

قال ابن كثير ــ رحمه الله ــ في تفسير قوله سبحانه وتعالى: ﴿إلا من أتى الله بقلب سليم﴾ أي: سالم من الدنس والشرك. قال ابن سيرين: القلب السليم يعلم أن الله حق وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور. وقال ابن عباس: القلب السليم يشهد أن لا إله إلا الله. وقال مجاهد والحسن وغيرهما: سليم من الشرك وقال سعيد بن المسيب: القلب السليم هو القلب الصحيح وهو قلب المؤمن. وقال أبو عثمان النيسابوري: هو القلب السالم من البدعة المطمئن إلى السنة[2].

ولها مع ذلك صفات كثيرة أخرى جميلة فهي قلوب مطمئنة ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ

(١) النصوص القرآنية المستشهد بها على تحديد الصفات في معظمها مما سبق إيراده من قبل إلا في القليل النادر حيث يشار إلى موقعه.
(٢) تفسير القرآن العظيم جـ ٢ ص ٣٣٩.

تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ﴾[1] ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرۡضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ﴿٢٩﴾ ﴾[2] ﴿ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ ﴾[3] وهي قلوب متآلفة ﴿ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءً فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ ﴾[4] ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيۡنَهُمۡۚ ﴾[5]

وهي قلوب وجلة خائفة من الله سبحانه وتعالى ﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ﴾[6] ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾[7] ﴿ وَبَشِّرِ ٱلۡمُخۡبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمۡ وَٱلۡمُقِيمِي ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾[8] وهي قلوب منيبة ﴿ مَّنۡ خَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِ وَجَآءَ بِقَلۡبٖ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ﴾[9] وهي كذلك قلوب مخبتة

---

(١) سورة الرعد الآية: ٢٨ .

(٢) سورة الفجر الآيات: ٢٧ ـ ٢٩ .

(٣) سورة النحل الآية: ١٠٦ .

(٤) سورة آل عمران الآية: ١٠٣ .

(٥) سورة الأنفال الآيتان: ٦٢، ٦٣ .

(٦) سورة الأنفال الآية: ٢ .

(٧) سورة المؤمنون الآية: ٦٠ .

(٨) سورة الحج الآيتان: ٣٤، ٣٥

(٩) سورة ق الآية: ٣٣ .

﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُواْ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ﴾[1] وهي قلوب طاهرة ﴿ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا ﴾[2] ومن مفهوم المخالفة في قوله جل جلاله ﴿ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ ﴾[3] وهي قلوب قد امتحنت للتقوى ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ﴾[4] وهي قلوب مهتدية ﴿ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ﴾[5] وهي قلوب قد عمرت بالإيمان وزين لها فجلب ذلك لأصحابها السكينة ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ﴾[6] ﴿ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ ﴾[7] ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ﴾[8] وهي قلوب ثابتة رابطة الجأش غير زائغة ﴿ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ

---

(١) سورة الحج الآية: ٥٤.
(٢) سورة الأحزاب الآية: ٥٣.
(٣) سورة المائدة الآية: ٤١.
(٤) سورة الحجرات الآية: ٣.
(٥) سورة التغابن الآية: ١١.
(٦) سورة الأنفال الآية: ١١.
(٧) سورة الفتح الآية: ١٨.
(٨) سورة المجادلة الآية: ٢٢.

﴿قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾﴾ [1] ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ [2] وهي قلوب خاشعة ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [3] وهي قلوب خالية من الغل والحسد ﴿وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [4] وهي قلوب لينة ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [5] وهي قلوب رؤوفة رحيمة ﴿وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ [6].

وكل صفة من صفات قلوب المؤمنين السابقة هي في حقيقة الأمر فرع عن الصفة الأساسية صفة السلامة، وهي تعني أن العبد قد سلم لله ولأمره فلم تبق فيه منازعة لأمره ولا

---

(١) سورة الأنفال الآية: ١١.
(٢) سورة آل عمران الآية: ٨.
(٣) سورة الحديد الآية: ١٦.
(٤) سورة الحشر الآية: ١٠.
(٥) سورة الزمر الآية: ٢٣.
(٦) سورة الحديد الآية: ٢٧.

معارضة لخبره، فهو سليم مما سوى الله وأمره لا يريد إلا الله ولا يفعل إلا ما أمره الله، فالله وحد غايته، وأمره وشرعه، وسبيله(١).

فكما أن السموات والأرض لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فكذلك قلوب العباد لو كان فيها آلهة إلا الله لفسدت(٢).

ومن هنا أمكن أن نقول إن قلوب المؤمنين بصفاتها السابقة قد جمعت بين الرغبة فيما عند الله والرهبة مما عنده، ومن ثم فهي مقبلة على الله عامرة بحبه جلّ جلاله: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ﴾(٣) وهي مع ذلك ليست على درجة واحدة في هذا الإقبال والحب مما يوجب على كل مسلم السعي للوصول بقلبه إلى أعلى درجات السلامة حتى تزكو أعماله وتستقيم حياته، فالصلاة وهي عماد الدين مثلاً يتفاوت

---

(١) انظر: مفتاح دار السعادة لابن قيم الجوزية جـ ١ ص ٥٠.
(٢) د. أحمد فريد ـ التزكية بين أهل السنة والصوفية ص ١٥، مكتبة رياض الجنة، القاهرة.
(٣) سورة الحجرات الآية: ٣.

حظ المصلين فيها تبعاً لتفاوت قلوبهم. يقول ابن قيم الجوزية. . : «وليس حظ القلب العامر بمحبة الله وخشيته والرغبة فيه وإجلاله وتعظيمه من الصلاة كحظ القلب الخالي الخراب من ذلك، فإذا وقف الاثنان بين يدي الله في الصلاة وقف هذا بقلب مخبت خاشع له قريب منه سليم من معارضات السوء قد امتلأت أرجاؤه بالهيبة وسطع فيه نور الإيمان، وكشف عنه حجاب النفس ودخان الشهوات، فيرتع في رياض معاني القرآن، وخالط قلبه بشاشة الإيمان بحقائق الأسماء والصفات وعلوها وجمالها وكمالها الأعظم، وتفرد الرب سبحانه بثبوت جلاله وصفات كماله، فاجتمع همه على الله، وقرّت عينه به وأحس بقربه من الله قرباً لا نظير له، ففزع قلبه له، وأقبل عليه بكليته، وهذا الإقبال منه بين إقبالين من ربه، فإنه سبحانه أقبل عليه أولاً فانجذب قلبه إليه بإقباله، فلما أقبل على ربه حظي منه بإقبال آخر أتمَّ من الأول. . »[1] نسأل الله الكريم من فضله.

---

(١) كتاب الصلاة وحكم تاركها ـ بتحقيق تيسير زعيتر ص ١٧١، المكتب الإسلامي.

وكما تعددت صفات قلوب المؤمنين وتنوعت في الحسن والصلاح تعددت صفات قلوب الكافرين في القبح والفساد فهي قلوب قد ختم عليها ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٦ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَـٰرِهِمْ غِشَـٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝٧ ﴾(1) وهي قلوب عليها أكنة ومنهم من يستمع إليك ﴿ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ ﴾(2) وهي قلوب مليئة بالرعب شديدة القلق والاضطراب ﴿ سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ ﴾(3) وهي قلوب خالية من الخير(4) ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ ﴾(5) وهي قلوب مليئة بالكراهية للمؤمنين ﴿ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ ﴾(6) وهي قلوب

---

(1) سورة البقرة الآيتان: ٦، ٧.
(2) سورة الإسراء الآية: ٤٦.
(3) سورة آل عمران الآية: ١٥١.
(4) وذلك لخلوها من الإيمان باعتباره جماع الخير.
(5) سورة الأنفال الآية: ٧٠. (6) سورة التوبة الآية: ٨.

منكـــــــــــرة ﴿ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾[1] وهي قلوب غافلة عن الله سبحانه وتعالى ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ﴾[2] ﴿ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِى غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا ﴾[3] وهي قلوب لاهية ﴿ ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ۖ أَفَتَأْتُونَ ﴾[4] وهي قلوب قــاسيــة ﴿ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ ﴾[5] ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ﴾[6] ﴿ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾[7] ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ ﴾[8] وهي قلــوب مطبــوع عليهــا ﴿ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا

---

(١) سورة النحل الآية: ٢٢.
(٢) سورة الكهف الآية: ٢٨.
(٣) سورة المؤمنون الآية: ٦٣.
(٤) سورة الأنبياء الآيات: ١ ـ ٢ ـ ٣.
(٥) سورة الحج الآية: ٥٣.
(٦) سورة الزمر الآية: ٢٢.
(٧) سورة الأنعام الآية: ٤٣.
(٨) سورة البقرة الآية: ٧٤.

يَعۡلَمُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾[1] ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ ﴾[2] ﴿ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾ ﴾[3] ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ ﴾[4] وهي قلوب لا تفقه ﴿ وَلَقَدۡ ذَرَأۡنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا ﴾[5] وهي قلوب قد شد عليها ﴿ رَبَّنَا ٱطۡمِسۡ عَلَىٰٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ وَٱشۡدُدۡ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ ﴾[6] وهي قلوب جعل عليها الران ﴿ كَلَّاۖ بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿١٤﴾ ﴾[7] وهي قلوب أصحابها مجرمون ﴿ كَذَٰلِكَ سَلَكۡنَٰهُ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ ﴾[8] وهي قلوب غلف ﴿ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلۡفُۢۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفۡرِهِمۡ ﴾[9] وهي قلوب أشربت حب غير الله سبحانه

---

(١) سورة الروم الآية: ٥٩.

(٢) سورة النحل الآية: ١٠٨.

(٣) سورة الأعراف الآية: ١٠١.

(٤) سورة محمد الآية: ٢٤.

(٥) سورة الأعراف الآية: ١٧٩.

(٦) سورة يونس الآية: ٨٨.

(٧) سورة المطففين الآية: ١٤.

(٨) سورة الشعراء الآية: ٢٠٠.

(٩) سورة البقرة الآية: ٨٨.

وتعالى: ﴿ وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ﴾ (١)
وهي قلوب نجسة ﴿ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ
لَهُمْ ﴾ (٢) وهي قلوب غليظة ﴿ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟
مِنْ حَوْلِكَ ﴾ (٣) وهي قلوب قد عميت ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ
وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ ﴾ (٤) وهي قلوب زائغة
﴿ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ (٥) وهي قلوب مشتتة ممزقة
﴿ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ﴾ (٦) وهي قلوب مشمئزة
﴿ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ
بِٱلْءَاخِرَةِ ﴾ (٧) وهي قلوب مليئة بحمية الجاهلية ﴿ إِذْ جَعَلَ
ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ﴾ (٨).

---

(١) سورة البقرة الآية: ٩٣.
(٢) سورة المائدة الآية: ٤١.
(٣) سورة آل عمران الآية: ١٥٩.
(٤) سورة الحج الآية: ٤٦.
(٥) سورة الصف الآية: ٥.
(٦) سورة الحشر الآية: ١٤.
(٧) سورة الزمر الآية: ٤٥.
(٨) سورة الفتح الآية: ٢٦.

وكما كان لقلوب المؤمنين صفة جامعة هي السلامة فإن الصفة الجامعة لصفات قلوب الكافرين هي صفة الموت فهي قلوب ميتة كما أخبر الله سبحانه وتعالى: ﴿ ۞ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾[1] ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴾[2] فكل صفة من الصفات السابقة فرع عن هذه الصفة الأساسية (موت القلب) نسأل الله السلامة والعافية.

ومتى مات القلب فإنه يعمى ولا يبصر الحق ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ ﴾[3] لذلك فإن عمى البصيرة لا يقارن بعمى الأبصار، نسأل الله أن ينور قلوبنا وقبورنا وأن يختم لنا بخاتمة السعادة.

وكما تعددت صفات قلوب المؤمنين وصفات قلوب

---

(١) سورة الأنعام الآية: ٣٦.
(٢) سورة الأنعام الآية: ١٢٢.
(٣) سورة الحج الآية: ٤٦.

الكافرين تعددت كذلك صفات قلوب المنافقين وكما كان لكل منهما صفة جامعة فإن صفات قلوب المنافقين تجمعها صفة المرض ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ﴾(١) ﴿ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا ﴾(٢) فكل الصفات الأخرى فرع عن هذه الصفة الأساسية، فمنها أنها قلوب مليئة بالحسرة ﴿ لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ ﴾(٣) ومنها وهي قلوب مترددة ﴿ قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ ﴾(٤) ﴿ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ﴾(٥) ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ ﴾(٦) وهي قلوب لم تؤمن في الحقيقة ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ﴾(٧) ومنها أنها

---

(١) سورة البقرة الآية: ١٠.

(٢) سورة النور الآية: ٥٠.

(٣) سورة آل عمران الآية: ١٥٦.

(٤) سورة آل عمران الآية: ١٦٧.

(٥) سورة النساء الآية: ٦٣.

(٦) سورة المائدة الآية: ٤١.

قلوب مرتابة ﴿ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾[1] ﴿ لَا يَزَالُ بُنْيَـٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ ﴾[2] ومنها أنها قلوب مطبوع عليها ﴿ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾[3] - ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾[4] ومنها أنها خبيثة ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ ﴾[5] ومنها أنها قلوب مصروفة عن الخير ﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم ﴾[6] ومنها أنها قلوب عليها أقفال ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ (٢٤) ﴾[7] ومنها أنها ملئت نفاقاً ﴿ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى

---

(١) سورة التوبة الآية: ٤٥.

(٢) سورة التوبة الآية: ١١٠.

(٣) سورة التوبة الآية: ٨٧.

(٤) سورة المنافقون الآية: ٣.

(٥) سورة التوبة الآية: ١٢٥.

(٦) سورة التوبة الآية: ١٢٧.

(٧) سورة محمد الآية: ٢٤.

﴿قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ۝٧٧﴾[1] ومنها أنها قلوب آثمة بما تنطوي عليه من خبث وسوء طوية ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ﴾[2] ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ﴾[3] ﴿يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ﴾[4] ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ۝٢٩﴾[5] ولما كان سبب مرض قلوب المنافقين هو الشك في الحق بالشبه التي ترد على قلوبهم عياذاً بالله فإن مرضى القلوب بالشهوات يلحقون بهم بجامع المرض في قلوب الجميع ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾[6].

---

(١) سورة التوبة الآية: ٧٧.

(٢) سورة البقرة الآية: ٢٠٤.

(٣) سورة النساء الآية: ٦٣.

(٤) سورة التوبة الآية: ٦٤.

(٥) سورة محمد الآية: ٢٩.

(٦) سورة الأحزاب الآية: ٣٢.

وكل من مرض قلبه فإن بإمكانه من خلال التعرف على حقيقة مرضه أن يعرف ما إذا كان مرض قلبه مرض شبهة أو مرض شهوة فيجد في طلب الدواء[1] لتعود الصحة والعافية إلى قلبه فيسعد في الدنيا وينعم في الآخرة.

ويلاحظ من خلال استعراض صفات قلوب المنافقين أن هناك بعض الصفات المشتركة بينها وبين قلوب الكافرين ولا غرابة في هذا فقلوب المنافقين كما هو معلوم تبطن الكفر في الوقت الذي يعلن فيه أصحابها الإيمان ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۝٨ ﴾[2] وصفة الطبع هذه وصفة جعل الأقفال عليها في قوله تعالى: ﴿ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ۝٢٤ ﴾[3] هما الصفتان المشتركتان بين قلوب الكافرين والمنافقين، وهما من أبرز الصفات التي تحول بين أصحابها وبين الحق، فلو شاء الله أن يرفع عنها الطبع والأقفال

(١) سيجري وصف الدواء في مبحث آخر إن شاء الله.

(٢) سورة البقرة الآية: ٨.

(٣) سورة محمد الآية: ٢٤.

لاستجابت للحق. . يقول ابن قيم الجوزية رحمه الله في شرح معنى قوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ ﴾[1] «فلو رفعت الأقفال عن القلوب لباشرتها حقائق القرآن واستنارت فيها مصابيح الإيمان وعلمت علماً ضرورياً يكون عندها كسائر الأمور الوجدانية من الفرح والألم والحب والخوف أنه من عند الله تكلم به حقاً وبلغه رسوله جبريل عنه إلى رسوله محمد ﷺ فهذا الشاهد في القلب من أعظم الشواهد»[2].

---

(١) سورة محمد الآية: ٢٤.

(٢) بغية القاصدين من كتاب مدارج السالكين ـ عبد الله بن خلف السيث ص ٢٩٧، الدار السلفية.

رابعاً: أنواع القلوب باعتبار لونها:

حقاً إنه لشيء عجيب أن يكون للقلوب التي في الصدور لون، وأعجب منه أن تكون ألوانها تبعاً لحالها من السلامة، والمرض، والموت، ولكن هذه هي الحقيقة التي قررها من وُكِّل إليه أمر بيان القرآن محمد ﷺ في قول الله جلّ جلاله: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾[1] وذلك حيث يقول ﷺ فيما يرويه الإمام مسلم من حديث حذيفة رضي الله عنه: «تعرض الفتن على القلوب كالحصير عوداً عوداً فأي قلب أشربها نكت فيه نكتة سوداء وأي قلب أنكرها نكت فيه نكتة بيضاء حتى تصير على قلبين على أبيض مثل الصفا فلا تضره فتنة ما دامت السماوات والأرض، والآخر أسود مربادا كالكوز مجخياً لا

(١) سورة النحل الآية: ٤٤.

يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً إلا ما أشرب من هواه»[1].

فهذا بيان منه ﷺ عن انقسام القلوب تبعاً للونها إلى نوعين قلوب بيضاء، وقلوب سوداء، وأن البياض بسبب الطاعات والسواد بسبب المعاصي. فالقلب الأبيض قد أشرق فيه نور الإيمان وأزهر فيه مصباحه، وإذا عرضت عليه الفتن أنكرها وردها فازداد نوره وإشراقه وقوته.

والقلب الأسود قد انكبَّ وانتكس فاشتدّ الظلام فيه، فلا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً وربما استحكم فيه المرض حتى يعتقد المنكر معروفاً والمعروف منكراً، والسنة بدعة والبدعة سنة، والحق باطلاً والباطل حقاً بسبب الفتن التي أشربها وهي فتن الشهوات، وفتن الشبهات، وفتن الغي والضلال، وفتن المعاصي والبدع

(١) صحيح مسلم كتاب الإيمان باب رفع الأمانة والإيمان من بعض القلوب وعرض الفتن على القلوب.

وفتن الظلم والجهل (١).

وهذه القسمة الثنائية «البياض والسواد» هي أصل التنوع في ألوان القلوب، لكن لما كان النور واحداً وكانت الظلمات كثيرة كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ۝١﴾ (٢) فقد جاء بيان ذلك التنوع في الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «القلوب أربعة قلب أجرد فيه مثل السراج يزهر، وقلب مربوط على غلافه، وقلب منكوس وقلب مصفح، فأما القلب الأجرد فقلب المؤمن سراجه فيه نوره، وأما القلب الأغلف فقلب الكافر، وأما القلب المنكوس فقلب المنافق عرف ثم أنكر، وأما القلب المصفح فقلب فيه إيمان ونفاق، فمثل الإيمان فيه كمثل البقلة يمدها الماء الطيب، ومثل النفاق فيه كمثل القرحة

---

(١) انظر: إغاثة اللهفان ص ١٦، ١٧.

(٢) سورة الأنعام الآية: ١.

يمدها القيح والدم فأيّ المدتين غلبت على الأخرى غلبت عليه»(١).

فكان الإيمان بذلك سبب بياض القلب وكان الكفر والنفاق سبب اسوداد القلب عياذاً بالله، وقد رأينا من خلال النصوص القرآنية التي سيقت فيما مضى أن مكنونات القلوب تتفرع عن هذه الأصول فجاء إخباره ﷺ عن ألوان القلوب مبيناً لما دل عليه القرآن الكريم ومطابقاً له ومن عجب أن هذه المكنونات التي أعطت القلوب ألوانها البيضاء والسوداء هي بعينها التي أعطت الوجوه ألوانها البيضاء والسوداء كذلك ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾ ﴾(٢).

نسأل الله سبحانه وتعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العلي أن يبيض قلوبنا ووجوهنا يوم نلقاه.

---

(١) المسند جـ ٣ ص ١٧.

(٢) سورة آل عمران الآيتان: ١٠٦، ١٠٧.

خامساً: أنواع القلوب باعتبار تأثرها بالحق:

من خلال تدبر نصوص القرآن السابقة التي وردت فيها لفظة القلب نجد أن القلوب تنقسم باعتبار الاستجابة للحق إلى أربعة أنواع: قلب إذا ورد عليه الحق يستجيب له ويزداد به إيماناً وتصديقاً، وقلب يتيقنه فتقوم به عليه الحجة، وقلب يوجب له حيرة وعمى فلا يدري ما يراد منه، وقلب يفتن به كفراً وجحوداً(١). وذلك مصداق قوله تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۙ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾ ﴾ (٢). فالقلوب المؤمنة الحية

---

(١) انظر: إغاثة اللهفان جـ ١ ص ٢٢.

(٢) سورة المدثر الآية: ٣١.

قابلة للتأثر بالحق جاهزة للانتفاع به ﴿ ۞ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ (١) ﴿ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ ﴾ (٢) ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ۖ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾ ﴾ (٣) ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾ ﴾ (٤) ﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ ﴾ (٥) ﴿ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾ (٦) .

---

(١) سورة الأنعام الآية: ٣٦.

(٢) سورة النمل الآية: ٨١.

(٣) سورة فصلت الآية: ٤٤.

(٤) سورة الزمر الآية: ٢٣.

(٥) سورة التوبة الآية: ١٢٤.

(٦) سورة النمل الآية: ٨٠.

وهذا الاستعداد لقبول الحق هو ما يطلق عليه ابن قيم الجوزية المحل القابل وذلك حيث يقول: «إذا أردت الانتفاع بالقرآن فأجمع قلبك عند تلاوته وألق سمعك واحضر حضور من يخاطبه به من تكلم به سبحانه منه إليه، فإنه خطاب منه سبحانه لك على لسان رسوله ﷺ قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ۝٣٧ ﴾[1] وذلك أن تمام التأثير لما كان موقوفاً على مؤثر مقتض ومحل قابل وشرط لحصول الأثر وانتفاء المانع الذي يمنع منه تضمنت الآية بيان ذلك كله بأوجز لفظ وأبينه وأدله على المراد فقوله: ﴿إن في ذلك لذكرى﴾ إشارة إلى ما تقدم من أول السورة إلى ها هنا وهذا هو المؤثر وقوله: ﴿لمن كان له قلب﴾ فهذا هو المحل القابل والمراد به القلب الحي الذي يعقل عن الله، كما قال الله تعالى: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ۝٦٩ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا ﴾[2] أي حي القلب وقوله: ﴿ألقى

---

(١) سورة ق الآية: ٣٧.

(٢) سورة يس الآيتان: ٦٩، ٧٠.

السمع﴾ أي وجه سمعه إلى ما يقال له وهذا هو شرط التأثر بالكلام وقوله: ﴿وهو شهيد﴾ أي شاهد القلب حاضر، غير غائب. قال ابن قتيبة: استمع لكتاب الله وهو شاهد القلب والفهم، ليس بغافل ولا ساه. وهو إشارة إلى المانع من حصول التأثر وهو سهو القلب وغيبته عن تعقل ما يقال له والنظر فيه وتأمله. فإذا حصل المؤثر وهو القرآن، والمحل القابل وهو القلب الحي ووجد الشرط وهو الإصغاء وانتفى المانع وهو اشتغال القلب وذهوله عن معنى الخطاب وانصرافه عنه إلى شيء آخر حصل الأثر وهو الانتفاع بالقرآن والتذكر. فصاحب القلب الحي بين قلبه وبين معاني القرآن أتم الاتصال فيجدها كأنها قد كتبت فيه، فهو يقرؤها عن ظهر قلب»[1].

وهذا الإحساس المرهف في القلوب الحية هو الذي يشير إليه سيد قطب رحمه الله حيث يقول: «الذي يجد راحة اليقين في قلبه يجد في الآيات مصداق يقينه، ويجد فيها طمأنينة ضميره، فالآيات لا تنشيء اليقين، إنما اليقين هو

(١) التفسير القيم ص ٤٤٣، ٤٤٥.

الذي يدرك دلالتها ويطمئن إلى حقيقتها ويهيء القلوب للتلقي الواصل الصحيح»(١) ومن هنا كان القرآن هدى وبشرى للمؤمنين ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ﴾(٢) وهو كذلك هدى للمتقين ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢﴾(٣) وهم الذين ينتفعون به ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ۝٥١﴾(٤) ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ۝١١﴾(٥).

وأما القلوب الكافرة الميتة فهي قلوب قد حيل بينها وبين الحق عياذاً بالله بحوائل كثيرة، فهي بقسوتها وكونها قد جعل عليها الران والأكنة والأقفال، ولكونها قد طبع عليها وختم عليها وكونها غلفاً وغافلة عن الله ولاهية عنه وعن اليوم الآخر لا تقبل الحق ولا تستجيب له ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ

---

(١) الظلال جـ ١ ص ١٠٧.

(٢) سورة فصلت الآية: ٤٤.

(٣) سورة البقرة الآيتان: ١، ٢.

(٤) سورة الأنعام الآية: ٥١.

(٥) سورة يس الآية: ١١.

إِلَيْهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ ﴾[(١)] ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾ ﴾[(٢)] ﴿ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ ﴾[(٣)] ﴿ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ ﴾[(٤)] ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾[(٥)] ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾[(٦)] ﴿ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾[(٧)] ﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾ ﴾[(٨)] قال ابن كثير في تفسيرها[(٩)] (قال السدى : ختم الله أي : طبع الله وقال قتادة في

---

(١) سورة فصلت الآية : ٥ .
(٢) سورة الكهف الآية : ٥٧ .
(٣) سورة النساء الآية : ١٥٥ .
(٤) سورة المطففين الآية : ١٤ .
(٥) سورة البقرة الآية : ٧٤ .
(٦) سورة الحشر الآية : ٢١ .
(٧) سورة الأعراف الآية : ١٠٠ .
(٨) سورة البقرة الآية : ٧ .
(٩) انظر : ابن كثير ـ تفسير القرآن العظيم جـ ١ ص ٤٥ ـ ٤٦ .

هذه الآية: استحوذ عليهم الشيطان إذ أطاعوه، فختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم فهم لا يبصرون هدى ولا يسمعون ولا يفقهون ولا يعقلون، وعن مجاهد ختم الله على قلوبهم قال الطبع ثبتت الذنوب على القلب فحفت به من كل نواحيه حتى تكثفت عليه قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾[1] وقوله: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾[2] وما أشبه ذلك من الآيات الدالة على أنه تعالى إنما ختم على قلوبهم وحال بينهم وبين الهدى جزاءاً وفاقاً على تماديهم في الباطل وتركهم الحق وهذا عدل منه تعالى حسن وليس بقبيح.

وذكره القرطبي وأورد حديث تقليب القلوب وحديث حذيفة في الصحيح عن رسول الله ﷺ وحديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن المؤمن إذا أذنب ذنباً كانت نكتة سوداء في قلبه فإن تاب... إلى آخر الحديث» قال ابن جرير إن

---

(١) سورة الصف الآية: ٥. (٢) سورة الأنعام الآية: ١١٠.

رسول الله ﷺ قد أخبر في هذا الحديث أن الذنوب إذا تتابعت على القلوب أغلقتها وإذا أغلقتها أتاها حينئذ الختم قبل الله تعالى والطبع فلا يكون للإيمان إليها مسلك ولا للكفر عنها مخلص، وهذا هو الختم والطبع الذي جاء في قوله تعالى: ﴿ختم الله على قلوبهم﴾ وهذا الذي ذهب إليه الإمام ابن كثير فيما أورد هنا من حقيقة بعد القلوب الكافرة عن قبول الحق هو زبدة النصوص الكثيرة التي تحدثت عن صفات قلوب الكافرين[1]، وهو الذي جعل موقف الإعراض عن الحق موقفاً متكرراً من الكافرين في كل زمان ومكان ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ١١٨﴾[2] ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا ١﴾[3]. فالطغيان

(١) انظر: جزئية أنواع القلوب باعتبار صفاتها ص ٤٠.

(٢) سورة البقرة الآية: ١١٨.

(٣) سورة الذاريات الآيتان: ٥٢، ٥٣.

ومجاوزة الحد في الكفر جمعتهم في هذا الموقف من الحق[١] وهو الذي أدى إلى الطبع على قلوبهم فلما لم يوجهوا قلوبهم إلى موجبات الهدى ودلائل الإيمان طبع الله على قلوبهم وأغلقها فما عادت تتلقى ولا تنفعل ولا تستجيب[٢]. وذلك (حسب سنة الله القديمة في أن القلب الذي يغلقه صاحبه ينطبع على هذا ويجمد ويتحجر، فلا يعود صالحاً للتلقي والاستقبال لا أن الله سبحانه يغلق هذه القلوب ليمنعها ابتداء من الاهتداء، فإنما هي السنة تتحقق مقتضياتها في جميع الأحوال)[٣] فصاحب هذه الحال لا يسمع شيئاً ينفعه ولا يعي شيئاً يهتدي به ولا يرى حجة يستضيء بها)[٤] فلا يصل إلى قلبه هدى ولا يخلص إليه خير ولا يعي ولا يهتدي[٥]

(١) انظر: زبدة التفسير من فتح القدير ص ٦٩٥.
(٢) سيد قطب ـ في ظلال القرآن جـ ٣ ص ١٣٤٢.
(٣) سيد قطب ـ في ظلال القرآن جـ ٣ ص ١٨١٣.
(٤) ابن كثير ـ تفسير القرآن العظيم جـ ٤ ص ١٥٠.
(٥) ابن كثير ـ تفسير القرآن العظيم جـ ٤ ص ٣٦٩.

﴿ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴾ [1]

وأما القلوب المريضة فبمقدار ما فيها من مرض يكون إعراضها عن الحق ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ ﴾ [2] ﴿ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴾ [3] ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ۝ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۗ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴾ [4] ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [5].

ومن مرضى القلوب المتكبرون والمستعلون في الأرض، حيث لا يحول بينهم وبين قبول الحق الذي

---

(١) سورة النحل الآية: ٢٢.

(٢) سورة التوبة الآية: ١٢٥.

(٣) سورة التوبة الآية: ٤٥.

(٤) سورة فصلت الآية: ٤٤.

(٥) سورة المائدة الآية: ٦٨.

استيقنوه إلا الكبر ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ (١) ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾﴾ (٢) ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾﴾ (٣) فيتحصل مما سبق أن موت القلب ومرضه من موانع الاستجابة للحق والاستجابة لداعيه والقسمة الرباعية السالفة في الحقيقة تؤول إلى قسمة ثنائية بالنسبة للاستجابة للحق فالقلوب إما مستجيبة وإما معرضة، ولكن الإعراض مراتب ودرجات نسأل الله السلامة والعافية، فالإعراض مرتبة، والتكذيب مرتبة فوقها، ثم الاستهزاء بالحق مرتبة فوق ذلك، والمرتبة الأسوأ من ذلك هي الصد عنه (٤).

---

(١) سورة النمل الآية: ١٤.

(٢) سورة الإسراء الآية: ١٠٢.

(٣) سورة البقرة الآية: ١٤٦.

(٤) انظر: وظيفة الأخبار في سورة الأنعام رسالة دكتوراه للمؤلف ص ٢٤٨ ـ ٢٤٩، عالم الكتب، الرياض.

سادساً: أنواع القلوب باعتبار آثارها:

بمراجعة النصوص القرآنية المتعلقة بالقلب، وما كتب عن أنواع القلوب بالاعتبارات السابقة يمكن أن يقال إن القلوب باعتبار آثارها نوعان رئيسيان: نوع يدفع إلى تحقيق أسباب السعادة في الدنيا، ونعيم الآخرة، وتلك هي القلوب الحية الطاهرة السليمة إذ إن سلامة القلب تؤدي إلى إدراك الحق وإرادته وإيثاره فينشأ عن ذلك صحة العلم والقصد والعمل، وتؤدي إلى قوة العلم والتمييز وقوة الإرادة والحب لله «ولهذا كان الصحابة رضي الله عنهم أعظم إيماناً وجهاداً ممن بعدهم لكمال معرفتهم بالخير والشر وكمال محبتهم للخير وبغضهم للشر لما علموه من حسن حال الإسلام والإيمان والعمل الصالح وقبح حال الكفر والمعاصي»(١).

---

(١) شيخ الإسلام ابن تيمية ـ الفتاوى جـ ١٠ ص ٣٠١.

فالقلب الحي لما فيه من النور يسمع ويبصر ويعقل ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾(1) وهو إذا قوي نوره وإشراقه انكشفت له صور المعلومات وحقائقها على ما هي عليه فاستبان حسن الحسن فآثره بحياته، وكذلك يصبح القبيح قبيحاً وذلك مصداق قوله جلّ جلاله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾﴾(2) وقوله جلّ جلاله: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾(3) لذلك كان أصحاب هذه القلوب مسارعين للخيرات، لما تحقق لهم من صحة العلم والقصد ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ

(1) سورة الحج الآية: ٤٦.

(2) سورة الشورى الآية: ٥٢.

(3) سورة المائدة الآيتان: ١٥، ١٦.

يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾﴾[1] وهؤلاء هم الذين آمنوا واستقاموا ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾[2] وهم الذين تكفل الله لهم بالحياة الطيبة في الدنيا والمثوبة العظيمة في الآخرة ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾[3] ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾﴾[4] وهم الذين تحقق لهم شرح الصدر واتساعه وانفساحه ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ﴾[5] وهم الذين خلصت

---

(١) سورة المؤمنون الآية: ٦١.

(٢) سورة فصلت الآية: ٣٠.

(٣) سورة النحل الآية: ٩٧.

(٤) سورة طه الآية: ١٢٣.

(٥) سورة الزمر الآية: ٢٢.

محبتهم لخالقهم ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ ﴾[1] ومعلوم أن الحب يحرك إرادة القلب ، فكلما قويت المحبة في القلب طلب القلب فعل المحبوبات[2] ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾ ﴾[3] وهم الذين يحول إيمانهم بينهم وبين الانحراف ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ ﴾[4] ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾[5] ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ ﴾[6] فالله سبحانه وتعالى حدّ للمؤمنين

---

(١) سورة البقرة الآية : ١٦٥ .

(٢) شيخ الإسلام ابن تيمية ـ الفتاوى جـ ١٠ ص ١٩٢ .

(٣) سورة الحجرات الآية : ٧ .

(٤) سورة الأعراف الآية : ٢٠١ .

(٥) سورة المؤمنون الآية : ٦٠ .

(٦) سورة يوسف الآية : ٢٤ .

صفات سلوكية واضحة، هذه الصفات مرتبطة بتطهير القلب وتزكية النفس وتنقية الضمير، ومن شأنها أن تحمي الفرد من الانحراف والفساد[1] والمؤمنون الصادقون ذوو القلوب الطاهرة الزكية هم الذين يرضى الله عنهم ﴿ ۞ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ ﴾[2] ورضوان الله هو منتهى بغية العقلاء.

«حكى أن عمر رأى ولداً له يوم عيد وعليه قميص خلق فبكى فقال ما يبكيك؟ فقال له: يا بني أخشى أن ينكسر قلبك في يوم العيد إذا رآك الصبيان بهذا القميص الخلق فقال إنما ينكسر قلب من أعدمه الله رضاه أو عقّ أمه وأباه وإني لأرجو أن يكون الله راضياً عني برضاك فبكى عمر وضمه إليه ودعا له»[3].

---

(١) فوزية رضا أمين خياط ـ الأهداف التربوية السلوكية عند شيخ الإسلام ابن تيمية ص ٦٩، مكتبة المنارة.

(٢) سورة الفتح الآية: ١٨.

(٣) مكاشفة القلوب المقرب إلى حضرة علام الغيوب ص ٤١٩، دار إحياء العلوم.

وعلى هذا فحياة القلب وإضاءته مادة كل خير وموته وظلمته مادة كل شر(١). ومن هنا كان النوع الثاني من أنواع القلوب باعتبار آثارها قلوباً تدفع أصحابها إلى شقاء الدنيا وعذاب الآخرة عياذاً بالله وهي قلوب الكافرين والمنافقين أي القلوب الميتة والقلوب المريضة، ذلك أن هذه القلوب يفسد إدراكها، فإما أن يذهب الإدراك بالكلية وإما أن ينقص الإدراك، وإما أن تدرك الأشياء على خلاف ما هي عليه، أي أنه يترتب على حالها فساد العلم والقصد والعمل، لأنها لا تسمع ولا تبصر ولا تعقل ﴿ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ (٢) ومن ثم يضعف علمها وتمييزها وإرادتها، فموت القلب أو مرضه يؤدي إلى عدم إدراك الحق والإعراض عنه وكراهيته ﴿ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴾(٣) ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ

---

(١) طب القلوب ص ٣٨.

(٢) سورة الأنفال الآية: ٢٢.

(٣) سورة النحل الآية: ٢٢.

ٱشۡمَأَزَّتۡ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾[1] (وإنما يشقى العبد إذا حصل على أربع خلال أولها الكسل والبطالة ويتبعها ضياع الزمان وفناء العمر بغير فائدة إنسانية، والثاني الغباوة والجهل المتولدان عن ترك النظر ورياضة النفس بالتعاليم التي أحصيناها في كتاب مراتب السعادات، والثالث الوقاحة التي ينتجها إهمال النفس إذا تتبعت الشهوات وترك زمها عن ركوب الخطايا والسيئات، والرابع الانهماك الذي يحدث من الاستمرار في القبائح وترك الإنابة.

وهذه الأنواع الأربعة مسماة في الشريعة بأربعة أسماء: فالأول هو الزيغ، والثاني هو الرين، والثالث هي الغشاوة، والرابع هو الختم)[2]. وهذه الصفات الأربع من أجمع صفات القلوب الميتة والمريضة التي جرى بيانها

(١) سورة الزمر الآية: ٤٥.

(٢) أبو علي أحمد بن محمد بن يعقوب الرازي (مسكويه) تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق ص ١١٧، دار مكتبة الحياة، بيروت ط ٢.

فيما مضى وهي مما تترتب عليه الآثار السيئة في حياة الإنسان ﴿ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ﴾[1] ﴿ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾[2] ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ﴾[3] ﴿ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾[4] ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ ﴾[5] إذ القلوب غير الصحيحة يشتبه عليها أمر المعروف والمنكر والحسن والقبيح، لذلك قال ابن مسعود رضي الله عنه: «هلك من لم يكن له قلب يعرف به المعروف من المنكر»[6].

﴿ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾[7] وأصحاب هذه

---

(١) سورة المائدة الآية: ٥٢.
(٢) سورة التوبة الآية: ٤٥.
(٣) سورة آل عمران الآية: ٧.
(٤) سورة البقرة الآية: ١١٨.
(٥) سورة الكهف الآية: ٢٨.
(٦) إغاثة اللهفان جـ ١ ص ٣١.
(٧) سورة الأنعام الآية: ٤٣.

القلوب هم أهل الضلال والغي الذين لهم الضيق والحرج ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ ﴾(١) وهم أهل الشقاء عياذاً بالله ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ ﴾(٢) ولا تنافي بين هذه القسمة الثنائية وبين ما ذهب إليه ابن قيم الجوزية من تقسيمه للقلوب بالنسبة لتأثيرها على الإنسان إلى ثلاثة أقسام حيث يقول «والقلوب ثلاثة:

فالأول: قلب خال من الإيمان وجميع الخير فذلك قلب مظلم قد استراح الشيطان من إنفاذ الوسواس إليه لأنه قد اتخذه بيتاً ووطناً وتحكم فيه بما يريد وتمكن فيه غاية التمكن.

الثاني: قلب استنار بنور الإيمان وأوقد فيه

---

(١) سورة الأنعام الآية: ١٢٥.

(٢) سورة طه الآية: ١٢٤.

مصباحه لكن عليه ظلمة الشهوات وعواصف الأهوية للشيطان هناك إقبال وإدبار ومجالات ومطامع، فالحرب دول وسجال، وتختلف أحوال هذا الصنف بالقلة والكثرة، فمنهم من أوقات غلبته لعدوه أكثر، ومنهم من هو تارة وتارة.

الثالث: قلب محشو بالإيمان قد استنار بنور الإيمان وانقشعت عنه سحب الشهوات وأقلعت عنه تلك الظلمات، فلنوره في صدره إشراق، ولذلك الإشراق إيقاد لو دنا منه الوسواس احترق به، فهو كالسماء التي حرست بالنجوم فلو دنا منها الشيطان يتخطاها رجم فأحرق»(١).

فالثاني من قسمته فرع عن الأول عند غلبة الهوى عليه وفرع عن الثاني عند غلبة الخير عليه، كما لا تنافى بين تلك القسمة الثنائية وبين ما ذهب إليه أحمد بن قدامة إذ يقول: «وأعلم أن القلوب في الثبات على الخير

---

(١) الوابل الصيب ص ٤٠.

والشر والتردد بينهما ثلاثة:

الأول: عمر بالتقوى، وزكي بالرياضة، وطهر من خبائث الأخلاق تنفرج فيه خواطر الخير من خزائن الغيب فيمده الملك بالهدى.

الثاني: قلب مخذول، مشحون بالهوى، مدنس بالخبائث، ملوث بالأخلاق الذميمة، فيقوى فيه سلطان الشيطان لاتساع مكانه، ويضعف سلطان الإيمان، ويمتلىء القلب بدخان الهوى فيعدم النور ويصير كالعين الممتلئة بالدخان لا يمكنها النظر ولا يؤثر عنده زجر ولا وعظ.

الثالث: قلب يبدىء فيه خاطر الهوى فيدعوه إلى الشر، فيلحقه خاطر الإيمان فيدعوه إلى الإيمان»[1].

فالقلب الثالث في هذه القسمة هو فرع عن الأول باعتبار غلبة الإيمان وفرع عن الثاني باعتبار غلبة الهوى، فتكون القسمة في الحقيقة ثنائية.

---

(١) مختصر منهاج القاصدين ص ١٥١، مكتبة دار البيان.

المبحث الثالث:

مظاهر القلوب

وفيه:

♥ المقصود بالظاهر.
♥ مظاهر حياة القلب وصحته.
♥ مظاهر موت القلب وفساده وضياعه.

أولاً: المقصود بمظاهر القلوب:

يراد بمظاهر القلوب في هذا السياق العلامات الكاشفة عن حالة القلب من السلامة والمرض والموت. أو دلالات قد يتوصل من خلال تعقبها إلى ما عليه قلب الإنسان، سواء تمثلت هذه الدلالات أو العلامات في المشاعر والأحاسيس أو الأقوال والأفعال، أو هي الأحوال الظاهرة التي تكشف عن حقيقة مكنونات القلوب. ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ﴾[1] ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ ﴾[2] فهذه مظاهر سلوكية تكشف عن حقيقة دخيلة قلوب المؤمنين مثلا، وهناك مظاهر سلوكية أخرى تكشف عن خبايا قلوب المنافقين ﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ

---

(١) سورة الحجرات الآية: ٣.
(٢) سورة الحج الآية: ٣٢.

﴿ٱنصَرَفُواْ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم﴾[1] ﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ﴾[2] ﴿رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾[3] ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾[4] ﴿إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾﴾[5] وهناك علامات خارجية تدل على حال القلب ﴿وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾[6] وكذلك أقوال تكشف عن حالة القلب ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾﴾[7] ﴿وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾[8] ﴿إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ﴾[9].

---

(١) سورة التوبة الآية: ١٢٧.
(٢) سورة المائدة الآية: ٥٢.
(٣) سورة محمد الآية: ٢٠.
(٤) سورة الزمر الآية: ٤٥.
(٥) سورة الصافات الآية: ٣٥.
(٦) سورة الأحزاب الآية: ١٠.
(٧) سورة الأحزاب الآية: ١٢.
(٨) سورة المدثر الآية: ٣١.
(٩) سورة الأنفال الآية: ٤٩.

ومنها علامات تظهر على الوجوه ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٠﴾﴾[1] ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ﴾[2] ومن تلك العلامات والدلائل المشاعر والعواطف ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾[3] ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾﴾[4] والمقصود في هذا المقام هو ضرب الأمثلة للبيان والعظة وليس استقصاء الصور والنماذج.

---

(١) سورة محمد الآيتان: ٢٩، ٣٠.

(٢) سورة الفتح الآية: ٢٩.

(٣) سورة المجادلة الآية: ٢٢.

(٤) سورة الحجرات الآية: ٧.

ثانياً: مظاهر حياة القلب وصحته:

هناك علامات تدل على مدى الحياة في القلب، وهذه العلامات مستقاة ومستخلصة من النصوص القرآنية التي سيقت في معرض بيان قلوب المؤمنين، ذلك أن التقوى المستقرة في قلوب المؤمنين هي أساس الصلاح وأساس الحياة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ﴾[1].

ولما كان صلاح العلم والعمل مرهوناً بسلامة القلب وخلوه من العوائق والموانع التي تحول بينه وبين إدراك الحق وقبوله والانقياد إليه وإيثاره. كان الإنسان السوي مطالباً بأن يتفقد قلبه كل حين حتى يحقق له أسباب الحياة والسلامة والصحة، وذلك ما يجعل المؤمن في حالة يقظة وترقب.

ومظاهر حياة القلب علامات، ودلالات على

---

(١) سورة الحجرات الآية: ٣.

طريق المراقبة الذاتية تقدم لمن وجدها بشائر تشد أزره، وتشحذ همته وتثبت خطاه على طريق الاستقامة، كما يؤدي فقدانها إلى الخوف على الحال والمآل، ومن ثم فهي في الحقيقة وسيلة مهمة في المحافظة على حياة القلب وسلامته، بل إنها أداة رصد فعالة إذا حسن استخدامها.

ونحن إذ نسوق جملة منها إنما نسعى إلى تحقيق المعنيين السابقين في حياة الناس لأن الله سبحانه وتعالى قد رتب على صلاح القلوب صلاح الأقوال والأفعال، بل وطيب الحياة في الدارين.

فمن تلك المظاهر حسن الانتفاع بالعظة والاستبصار بالعبرة والظفر بالثمرة، فإن العمل الصالح هو ثمرة العلم النافع(١).

ومن تلك العلامات أو المظاهر وجل القلب من الله وشدة الخوف منه ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ

---

(١) انظر: طب القلوب ص ٢٤٦، ٢٤٧.

قُلُوبُهُمْ ﴾[1] ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾[2] ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ ﴾[3]، ومنها القشعريرة في البدن عند سماع القرآن، ولين الجلود والقلوب إليه ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾[4]، ومنها خشوع القلب لذكر الله ﴿ ۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾[5]، ومنها الاذعان للحق والخضوع له ﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ﴾[6]، ومنها كثرة الإنابة إلى الله ﴿ مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ﴾[7] ومنها الإنس بذكر الله خلاف الذين يشمئزون منه ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ ﴾[8]، ومنها تعظيم شعائر الله ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن

---

(١) سورة الأنفال الآية: ٢.
(٢) سورة الحج الآيتان: ٣٤، ٣٥.
(٣) سورة المؤمنون الآية: ٦٠.
(٤) سورة الزمر الآية: ٢٣.
(٥) سورة الحديد الآية: ١٦.
(٦) سورة الحج الآية: ٥٤.
(٧) سورة ق الآية: ٣٣.
(٨) سورة الزمر الآية: ٤٥.

يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ ﴾[1]، ومنها التضرع إلى الله والفزع إليه وقت الشدة ﴿ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ ﴾[2]، ومنها الطمأنينة بذكر الله ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ﴾[3] ومنها السكينة والوقار ﴿ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ ﴾[4]، ومنها خفقان القلب بحب المؤمنين ﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾[5] ومنها سلامة الصدر من الضغائن والأحقاد ضد المؤمنين ﴿ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا ﴾[6] ومنها عدم التقديم بين يدي الله ورسوله وعدم رفع الصوت فوق صوت النبي وغض الصوت عنده، أي الانقياد المطلق لأمر الله ورسوله والخضوع له ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ

---

(١) سورة الحج الآية: ٣٢.
(٢) سورة الأنعام الآية: ٤٣.
(٣) سورة الرعد الآية: ٢٨.
(٤) سورة الفتح الآية: ١٨.
(٥) سورة الحشر الآية: ١٠.
(٦) سورة آل عمران الآية: ١٠٣.

يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱتَّقُوا۟﴾[1] إلى قوله سبحانه وتعالى: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ﴾[2].

وهذا يعني أن إدراك الحق وإرادته وإيثاره من أهم مظاهر حياة القلوب وصحتها حيث يؤدي إلى حب الله والأنس به وإجلاله وتعظيمه والإنابة إليه والخضوع له والخوف منه، وتعلق القلب به ورجائه، والاطمئنان إليه، والتوكل عليه، وغير ذلك من أعمال القلوب التي تميز المؤمنين عن الكافرين، وجماع ذلك كله محبة الله والأنس به والشوق إلى لقائه والتنعم بذكره وطاعته، فذاك أطيب ما في هذه الدنيا، فحياة القلب بذكر الحي الذي لا يموت والعيش الهني إنما هو في الحياة مع الله، ومن كان كذلك دله قلبه عن الدنيا وانصرف كلية إلى الآخرة، بل وعن كل شيء سوى الله تعالى، فهذه هي حال قلوب المنيبين إلى الله[3].

---

(١) سورة الحجرات الآية: ١. (٢) سورة الحجرات الآية: ٣.

(٣) انظر: طبائع النفوس المسمى بكتاب الأكياس والمغترين للحكيم الترمذي محمد بن علي المتوفى ٣٢٠ ص ٦٢.

وذلك كما وصف حارثة نفسه لرسول الله ﷺ فوصفه بأنه عبد نور الله قلبه بالإيمان [١] وذلك في الحديث المشهور أن النبي ﷺ قال لحارثة: «يا حارثة كيف أصبحت قال أصبحت مؤمناً حقاً، قال انظر ما تقول فإن لكل قول حقيقة، قال: يا رسول الله عزفت نفسي عن الدنيا فأسهرت ليلي وأظمأت نهاري وكأني أنظر إلى عرش ربي بارزاً وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها وكأني أنظر إلى أهل النار كيف يتعارفون فيها قال أبصرت فالزم عبد نور الله قلبه بالإيمان» [٢] وهو يعني مصداق أمر رسول الله ﷺ لابن عمر: «كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل» [٣].

فيتحصل مما سبق أن من أبرز مظاهر حياة القلوب وعلامات صحتها وسلامتها، شدة التعلق بالله، ودوام

---

(١) انظر: دواء القلوب المقرب لحضرة علام الغيوب ص ٢٠.

(٢) قيل إنه ليس بصحيح.

(٣) أخرجه البخاري ـ الرقائق.

ذكره، واطمئنان القلب بذلك والاهتمام بصحة العمل بتصحيح النية وتحقيق المتابعة، والشح بعرضه كشح ذي المال البخيل، والحزن على فوات الطاعات والاشتياق إليها، واجتماع الهم بالله والسعي في مرضاته، وشهود نعمة الله والإحساس بالتقصير في حقه، وذهاب الهم بالصلاة والارتياح بها، وإيثار الآخرة على الدنيا، والنافع على الضار، والتألم بورود القبائح على النفس، والنفور من المعاصي، وأن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما (١).

ومن خلقت فيه قوة الحب لله والإنابة إليه والعكوف بالقلب عليه والشوق إليه والأنس به، فلذته ونعيمه استعمال هذه القوة في ذلك وسائر اللذات دون هذه اللذة مضمحلة فانية وأحمد عاقبتها أن تكون لا له ولا عليه (٢).

---

(١) انظر: إغاثة اللهفان جـ ١ ص ١١٣ ـ ١١٩.

(٢) دواء القلوب ص ٣٤٠.

والقلب إن لم تسكنه محبة الله سكنته محبة المخلوقين، والنفس إن لم تشغلها بالحق شغلتك بالباطل، بل إن حال القلب مع الله هو كما قال ابن قيم الجوزية: «في القلب شعث لا يلمه إلا الإقبال على الله، وفيه وحشة لا يزيلها إلا الأنس بالله، وفيه حزن لا يذهبه إلا السرور بمعرفته وصدق معاملته، وفيه قلق لا يسكنه إلا الاجتماع عليه والفرار إليه، وفيه نيران حسرات لا يطفئها إلا الرضى بأمره ونهيه وقضائه ومعانقة الصبر على ذلك إلى وقت لقائه، وفيه فاقة لا يسدها إلا محبته والإنابة إليه ودوام ذكره وصدق الإخلاص له، ولو أعطى الدنيا وما فيها لم تسد تلك الفاقة»(١). وصدق والله رحمه الله.

ومن ملاحظة واقع القلب ومعرفة حظه من تلك المعاني يعرف المرء حاله ومكانه. «وذلك لأن هذا الأنس المذكور يكون مبدؤه الكشف عن أسماء الصفات

---

(١) مدارج السالكين.

التي يحصل عنها الأنس ويتعلق بها كاسم الجميل والبر واللطيف والودود والحليم والرحيم ونحوها ثم يقوى التعلق بها حتى يكون معه طيب الحياة وقرة العين ولذة القلب وبهجة الروح مع كمال العافية بلا محنة والهداية بلا فتنة فتخف أعباء المسير، ويزول كل فتور ويظل القلب في ازدياد من معاني الخير دائماً[(١)].

ولو أخذنا مظهراً واحداً من مظاهر حياة القلوب تلك لنعرض واقعنا عليه وهو خفقان القلب بحب المؤمنين فماذا نحن واجدون، هل خفقت قلوبنا بحب أصحاب النوافل؟، أم هل خفقت قلوبنا بحب أهل الصيام والقيام؟، وهل خفقت قلوبنا بحب أهل العلم والدعوة والجهاد؟ أم هل خفقت بحب أهل الصدق والبذل والإنفاق في سبيل الله؟![(٢)] كلنا مطالبون بالإجابة الصادقة عن هذه الأسئلة لنقيس مدى الحياة في قلوبنا من خلال معيار واحد على الأقل.

---

(١) ابن قيم الجوزية.

(٢) سلمان بن فهد العودة ـ جلسة على الرصيف ص ١٧.

ثالثاً: مظاهر موت القلب وضياعه وفساده:

رأينا من خلال ما سبق من مظاهر القلوب الحية أن هناك علامات تدل على حالة القلب السليم، وكذلك هناك علامات تدل على حالة القلب الميت أو المريض، ومن أبرز تلك العلامات وأظهرها أن يتعذر على الإنسان ما خلق له من المعرفة بالله ومحبته والشوق إلى لقائه والإنابة إليه وإيثار ذلك على كل شهوة[1].

ومنها قلة الانفعال في الرغائب وقلة الإشفاق والرحمة، فقلوب أهل المعاصي معرضة عن كتاب الله وسنة رسوله، فهي مظلمة بعيدة عن الحق لا يصل إليها شيء من نور الإيمان وحقائق الفرقان[2].

---

(١) إغاثة اللهفان جـ ١ ص ١١٣.

(٢) دواء القلوب ص ٢٦١.

ومنها إيثار الدنيا على الآخرة كما في حديث جابر رضي الله عنه: «تكون فتنة يموت فيها قلب الرجل كما يموت فيها بدنه يصبح مؤمناً ويمسي كافراً أو يمسي مؤمناً ويصبح كافراً يبيع دينه بعرض من الدنيا»(١)، ومنها حب الشهوات ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾(٢) ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ﴾(٣)، ومنها شدة الغفلة ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ﴾(٤) وإنما يقسى القلب ويحدث الغفلة كثرة الفضول من الأقوال والأفعال وتنويق المأكل والمشرب، فإن هذه الأمور تحدث ظلمة القلب وموته(٥)، ومنها قحط العين وجفافها فتلك من

---

(١) أخرجه ابن ماجه في الفتن.
(٢) سورة الكهف الآية: ٢٨.
(٣) سورة القصص الآية: ٥٠.
(٤) سورة الأنبياء الآيات: ١ ـ ٢ ـ ٣.
(٥) د. أحمد زيد ـ التزكية بين أهل السنة والصوفية، ص ١٥، مكتبة رياض الجنة.

مظاهر قسوة القلب، وما ضرب عبد بعقوبة أعظم من قسوة القلب والبعد عن الله، فأبعد القلوب من الله القلب القاسي، وقسوة القلب من أربعة أشياء إذا جاوزت قدر الحاجة: الأكل والنوم والكلام والمخالطة، من أراد صفاء قلبه فليؤثر الله على شهواته، فالقلوب المتعلقة بالشهوات محجوبة عن الله بقدر تعلقها بها، وأهل المعرفة من أحيوا قلوبهم بقتل الهوى، وأما من قتل قلبه وأحيا الهوى فالمعرفة والحكمة عارية على لسانه(١).

ومنها القلق والاضطراب والخوف ﴿ سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا ﴾(٢)، ومنها عدم الشعور وقلة الإحساس ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَـٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَـٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾(٣)، ومنها هوان القبائح عليه والرغبة في المعاصي ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن

---

(١) انظر: الفوائد لابن القيم ص ١١١.

(٢) سورة آل عمران الآية: ١٥١. (٣) سورة الأعراف الآية: ١٧٩.

﴿يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾﴾(١) ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾﴾(٢).

ومنها عدم إنكار المنكر، فإن كان القلب لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً نكس فجعل أعلاه أسفله كما قال علي رضي الله عنه(٣)، ومنها الشعور بقوة القلب وخشونته ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾(٤) ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾(٥)، ومنها انحباس الطبع وضيق الصدر والشعور بالقلق والضيق بالناس ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾﴾(٦)

---

(١) سورة البقرة الآيتان: ٢٠٤، ٢٠٥.

(٢) سورة محمد الآية: ١٢.

(٣) دواء القلوب ص ٦٨.

(٤) سورة الحديد الآية: ١٦.

(٥) سورة البقرة الآية: ٧٤.

(٦) سورة الأنعام الآية: ١٢٥.

ومنها عدم التأثر بآيات القرآن ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾[1] ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾ ﴾[2]، ومنها عدم التأثر بالموعظة عامة وبالموت ولا رؤية الأموات خاصة ﴿ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ ﴾[3]، ومنها ازدياد الشغف بملذات الدنيا والحرص عليها ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ ﴾[4]، ومنها ظلمة في روحه تنعكس على وجهه يبصرها أصحاب الفراسات الإيمانية ﴿ وَٱلَّذِينَ كَسَبُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۖ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا ۚ ﴾[5] «إن للحسنة لنوراً في القلب وقوة في البدن وضياء في الوجه وسعة في الرزق

---

(١) سورة محمد الآية: ١٦.

(٢) سورة التوبة الآية: ١٢٥.

(٣) سورة التوبة الآية: ١٢٦.

(٤) سورة يونس الآية: ٧.

(٥) سورة يونس الآية: ٢٧.

ومحبة في قلوب الخلق، وإن للسيئة لظلمة في القلب وسواداً في الوجه ووهناً في البدن ونقصاً في الرزق وبغضاً في قلوب الخلق»[1].

ومنها تكاسل عن أعمال الخير ﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٥٤﴾ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾﴾[2]، ومنها شدة الغفلة عن الله وعدم الانتفاع بالنعم وعدم الاتعاظ بالنقم ﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾[3] ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِى غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾[4] ومنها حرمان العلم ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾﴾[5] ﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا

---

(١) الفتاوى جـ ١٠ ص ٩٨، ٩٩ من قول بعض السلف.

(٢) سورة التوبة الآيتان: ٥٤، ٥٥.

(٣) سورة الأنعام الآيتان: ٤٣، ٤٤.

(٤) سورة المؤمنون الآية: ٦٣.

(٥) سورة الفاتحة الآية: ٧.

يَسْتَمِعُونَ ﴿١٠٠﴾﴾[1] ومنها الإحساس بالوحشة بين العبد وربه ﴿لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ﴾[2] ﴿يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ﴾[3] ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾[4]، ومنها الإحساس بالوحشة بينه وبين الخلق وخاصة الصالحين ﴿يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨﴾﴾[5] ﴿وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾[6].

ومنها عدم الاستجابة لله وللرسول ﴿وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾﴾[7] ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ

---

(١) سورة الأعراف الآية: ١٠٠.
(٢) سورة آل عمران الآية: ١٥٦.
(٣) سورة التوبة الآية: ٦٤.
(٤) سورة الزمر الآية: ٢٢.
(٥) سورة التوبة الآية: ٨.
(٦) سورة آل عمران الآية: ١١٨.
(٧) سورة الكهف الآية: ٥٧.

﴿يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾﴾[1] ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾[2].

وقد كشف إبراهيم بن أدهم عن أسباب موت القلوب، وعدم الاستجابة للحق فقال: «لأن قلوبكم قد ماتت بعشرة أشياء عرفتم الله فلم تؤدوا حقه، وقرأتم كتاب الله ولم تعملوا به، وادعيتم عداوة الشيطان ووالیتموه، وادعيتم حب الرسول ﷺ وتركتم أثره وسنته ادعيتم حب الجنة ولم تعملوا لها، وادعيتم خوف النار ولم تنتهوا عن الذنوب، وادعيتم أن الموت حق ولم تستعدوا له، واشتغلتم بعيوب غيركم وتركتم عيوب أنفسكم، وتأكلون رزق الله ولا تشكرونه، وتدفنون موتاكم ولا تعتبرون»[3] .

ومعلوم أن هذه المظاهر والعلامات التي كشف عنها هنا هي في الحقيقة من الدلالات على موت القلب

---

(١) سورة الأنعام الآية: ٤٦ . (٢) سورة الأنفال الآية: ٢٣ .

(٣) للمسافرين فقط، أحمد عثمان، ص ٣٠، ط ١، ١٤٠٩ هـ.

بالكفر كلية أو مرضه بالشك والشهوة عياذاً بالله، ولو مات أصحابها على ذلك لدخلوا النار، وقد قالوا: «إنما يدخل الناس النار من ثلاثة أبواب باب أورث شكا في دين الله وباب شهوة أورثت تقديم الهوى على طاعته ومرضاته، وباب غضب أورث العدوان على خلقه.. أصول الخطايا ثلاثة الكبر وهو الذي صير إبليس إلى ما صار إليه، والحرص وهو الذي أخرج آدم من الجنة، والحسد وهو الذي جرأ ابن آدم على أخيه، فالكفر من الكبر، والمعاصي من الحرص والبغي والظلم من الحسد»[1].

وما دمنا قد بينا فيما مضى مظاهر حياة القلب وصحته، ومظاهر موت القلب وفساده، فإنه يجدر بنا أن ننبه إلى حقيقة غاية في الأهمية وهي أن القلوب قد لا تدوم على حالة واحدة، فقد يموت القلب الحي بأسباب وقد يحيا القلب الميت بأسباب كذلك، كما قد يصح

---

(١) ابن قيم الجوزية، إغاثة اللهفان جـ ١ ص ١١٣.

القلب المريض أيضاً بأسباب، فالقلب يموت بالجهل المطلق، ويمرض بنوع من الجهل ويحيا بالعلم واليقين، وفي القرآن من البينات ما يزيل أمراض الشبهة المفسدة للعلم والتصور والإدراك، وهو مزيل للأمراض الموجبة للإرادات الفاسدة حتى يصلح القلب ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ ﴾[1] والتوبة كذلك تصلح القلب، فإذا تاب العبد من الذنب تخلص قوة القلب وإرادته للأعمال الصالحة، فبالإيمان يزكو القلب وينمو فإنه يتضمن نفي ألوهية ما سوى الله الحق من القلب وإثبات إلهية الحق فيه، وهو حقيقة لا إله إلا الله، وهو أصل ما تزكو به القلوب. أما ما يفسده فهو الشبهات والشهوات، فيوردها عليه ليقوى مرضه، والشفاء هو القرآن، وذكر الله ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾[2] ﴿ يَٰٓأَيُّهَا

---

(١) سورة الأنفال الآية: ٢٤.

(٢) سورة الإسراء الآية: ٨٢.

ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى ﴾(١) وتحقيق التقوى ﴿ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ﴾(٢) وقد أحسن من نظم الأبيات التي بها حياة القلوب وموتها وذلك حيث يقول:

حمدت الذي أغنى وأقنى وعلما
وصير شكر العبد للخير سلما
وأهدي صلاة تستمر على الرضا
وأصحابه والآل جمعا مسلما
كما دلنا في الوحي والسنن التي
أتانا بها نحو الرشاد وعلما
أزال بها الأغلاف عن قلب حائر
وفتح آذانا أصمت وأحكما
فيا أيها الباغي استنارة قلبه
تدبر كلا الوحيين وانقد وسلما
فعنوان إسعاد الفتي في حياته

---

(١) سورة يونس الآية: ٥٧ .

(٢) سورة البقرة الآية: ١٩٧ .

مــع الله إقبـــالاً عليـــه معظمـــا
وفـاقـد ذا لا شـك قـد مـات قلبـه
أو اعتـل بـأمـراض كـالـديـن والعمـى
وآيـــة نعـــم فـــي الجـــوارح منعهـــا
منـــافعهـــا أو نقـــص ذلـــك مثلمـــا
وصحتهـــا تـــدري بـــإتيـــان نفعهـــا
كنطـــق وبطـــش والتصـــرف والنمـــا
وعيـن امتـراض القلـب فقـد الـذي لـه
أريـد مـن الإخـلاص والجـد فـاعلمـا
ومعـــرفـــة الشـــوق إليـــه إنـــابـــة
بـــإيثـــار ذا دون المحبـــات فـــاحكمـــا
ومـــوثـــر محبـــوب ســـوى الله قلبـــه
مريض على جرف من الموت والعمى
والظلـــم محـــذور خفـــا مـــوت قلبـــه
عليـــه تشغـــل عـــن دواه بعنـــدمـــا
وآيـــة ذا هـــون القبـــائـــح عنـــده
ولـــولاه أضحـــى نـــادمـــا متـــألمـــا
فجـــامـــع أمـــراض القلـــوب اتبـــاعهـــا
هـــواهـــا فخـــالفهـــا تصـــح وتسلمـــا

ومــن شــؤمــه تــرك اغتــذاء بنــافــع
وتـرك الـدواء الشـافـي وعجز كـلاهمـا
إذا صــحّ قلــب العبــد بــأن ارتحـالــه
إلـــى داره الأخـــرى فـــراح مسلمـــا
ومـــن ذاك إحســـاس المحـــب لقلبــه
بضـــرب وتحـــريــك إلـــى الله دائمـــا
إلـــى أن يهنـــا بـــالإنــابـــة مخبتـــا
فيسكـــن فـــي ذا مطمئنـــا منعمـــا
وفيهـــا دوام الــذكــر فــي كــل حــالــة
يــرى الأنــس بــالطــاعــات لله مغنمــا
ولصحـــب حـــد دلــه فـــي طـــريقــه
وكـــان معينـــاً نـــاصحـــاً متيممـــا
ومنهـــا إذا مـــا فـــاتــه الـــورد مـــرة
تـــراه كئيبـــاً نـــادمـــاً متـــألمـــا
ومنهـا اشتيـاق القلـب فـي وقـت خـدمـة
إليهـــا كمشتـــد بــــه الجـــوع والظمـــا
ومنهـــا ذهـــاب الهـــم وقـــت صـــلاتــه
بـــدنيـــاه مـــرتـــاحـــاً بهـــا متنعمـــا
ويشتـــد عنهـــا بعـــده وخـــروجــه

وقـد زال عنـد الهـم والغـم فـاستمـا
فـأكـرم بـه قلبـاً سليمـاً مقـربـاً
إلـى الله قـد أضحـى محبـاً متيّمـا
ومنهـا اجتمـاع الهـم منـه بـربّـه
بمـرضـاتـه يسعـى سـريعـاً معظّمـا
ومنهـا مـراعـاة شـحّ بعـرضـه
كمـا شـح ذو المـال البخيـل مصمّمـا
ومنهـا اهتمـام يثمـر الحـرص رغبـة
بتصحيـح أعمـال يكـون متممـا
بـإخـلاص قصـد والنصيحـة محسنـا
وتقييـده بـالاتبـاع مـلازمـا
ويشهـد مـع ذا منـة الله عنـده
وتقصيـره فـي حـق مـولاه دائمـا
فسـت بهـا القلـب السليـم ارتـداؤه
وينجـو بهـا من آفة المـوت والعمـى[1]

وغني عن البيان أن قلب الإنسان بأصل الفطرة

---

(١) الشيخ محمد بن علي بن عتيق، الفرق المبين بين مذهب السلف وابن سبعين وإخوانه الاتحادية الملحدين ص ١٩ ـ ٢٣.

صالح لقبول الهداية، وإنما ينحرف عن الجادة باتباع هواه والإقبال على الشهوات (١) والمطلوب من العقلاء أن يحافظوا على هذا الأصل السوي (٢): «فالقلب محتاج إلى ما يحفظ عليه قوته وهو الإيمان وأوراد

---

(١) انظر: الأهداف التربوية السلوكية عند شيخ الإسلام ابن تيمية ص ٨٥، مرجع سابق.

(٢) استفدت في هذه الجزئية إلى جانب النصوص القرآنية والنبوية من إغاثة اللهفان وصفات المنافقين لابن قيم الجوزية، وطب القلوب جمع د. عجيل جاسم، بداية الهداية (أدب المسلم في اليوم والليلة لأبي حامد الغزالي، تحقيق محمد عثمان الخشت)، وجلسة على الرصيف للشيخ سلمان العودة، وهزال الروح أعراضه وعلاجه، اختيار دار الأرقم، وتزكية النفس لأبي البراء، والفتور آثاره وأسبابه وعلاجه لجاسم الياسين، وتأملات في العقل والسلوك لمحمد إبراهيم التويجري، والطريق إلى القلوب لعباس حسين الجريسي، ودعوة في ذات المسلم، خليفة عبد الله القراشي، وروحانية الداعية للدكتور عبد الله علوان، وأثر الإيمان في حياة الفرد، دار البشير للثقافة والعلوم الإسلامية وأزمة روحية لعصام العطار، وواحات الإيمان لعبد الحميد البلالي، وفقه النفوس في ضوء القرآن والسنة جمال ماضي.

الطاعات، وإلى حمية من المؤذي الضار وذلك باجتناب الآثام والمعاصي وأنواع المخالفات، وإلى استفراغه من كل مادة فاسدة تعرض له وذلك بالتوبة النصوح واستغفار غافر الخطيئات»[1].

ومرض القلب يحتاج إلى حفظ الصحة ابتداء، وإلى إعادتها دواماً، والصحة تحفظ بالمثل والمرض يزول بالضد فصحة القلب تحفظ باستعمال أمثالها أو هو ما يقوى العلم والإيمان من الذكر والتفكر والعبادات المشروعة، وتزول بالضد، فتزال الشبهات بالبينات وتزال محبة الباطل ببغضه ومحبة الحق[2]، ومن لم يفعل مات قلبه، فأصبح إنساناً بلا حواس يقظة ولا مشاعر حية ولا عواطف ندية، ووجوده كعدمه ﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾[3].

---

(١) إغاثة اللهفان جـ ١ ص ٢٥.

(٢) الفتاوى جـ ١٠ ص ١٤٥. (٣) سورة الأنعام الآية: ٣٦.

المبحث الرابع:

أمراض القلوب

وفيه:

- ♥ حقيقة مرض القلب.
- ♥ مرض الشبهة.
- ♥ الشهوة.

أولاً: حقيقة مرض القلب:

الحديث عن القلب في هذا الكتاب يركز كما مر من قبل على الجانب المعنوي، ومن هنا فإن مرض القلب الحسي ليس داخلاً هنا وإن كان قد كثر في هذه الأيام حتى أصبح سمة من سمات العصر.

وعلى هذا فإنما نعنيه بمرض القلب هنا هو خروج القلب عن حد الاعتدال فيما يتعلق بإدراكه وإرادته، ومكنوناته مما يحدث ألماً وفساداً.

«إن القلب وغيره من الأعضاء يراد منه أن يكون صحيحاً سليماً لا آفة به، يتأتى منه ما هيء له، وخلق لأجله، وخروجه عن الاستقامة إما بيبسه وقساوته، وعدم التأتي لما يراد منه، وإما بمرض وآفة تمنعه من كمال هذه الأفعال ووقوعها على السداد»[1].

(١) طب القلوب ص ٧٠، مرجع سابق.

وقد ذهب العلماء في تفسير الآيات التي ورد فيها ذكر مرض القلب وصفاً للمنافقين إلى أن المراد به، إما الشك، أو الرياء، أو النفاق، أو كلها شك وريب ونفاق أو الحقد والحسد، أو شك وشرك وكفر ونفاق وشك في الدين على وجه التحديد (١) وتارة يفسر بالزنا والدغل (٢).

ومرض القلب يكون بالحب والبغض الخارجيين عن حد الاعتدال وهي الأهواء التي قال الله فيها: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ﴾ (٣) ﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ (٤) ويكون لضعف إدراك القلب وقوته حتى لا يستطيع أن ينعم ويريد ما ينفع ويصلح له (٥) فهو مرض الشك والريب من جهة فساد

---

(١) تفسير ابن كثير ١/٤٨، ٢/٦٨، ٣/٢٣٠، ٣/٣٩٨، والمنتخب ص ٥ - ١٠.

(٢) تفسير ابن كثير ٣/٤٨٢، ٣/٥١٩، والفتاوى جـ ١٠ ص ٩٣.

(٣) سورة القصص الآية: ٥٠.

(٤) سورة الروم الآية: ٢٩.

(٥) شيخ الإسلام ابن تيمية، الفتاوى ١٠/ ١٤٣.

الاعتقادات وفساد الإرادات[1] أو هو قلب به حياة وبه علة، وعلله فساد العلم والقصد. ومن ثم فهو ليس على الحالة السوية أو هو كما وصفه ابن قيم الجوزية حيث يقول: «ومرضه هو نوع فساد يحصل له يفسد به تصوره للحق، وإرادته له، فلا يرى الحق حقاً، أو يراه على خلاف ما هو عليه، أو ينقص إدراكه وتفسد به إرادته له، فيبغض الحق النافع، أو يحب الباطل الضار أو يجتمعان له، وهو الغالب»[2] وصدق والله فما حال بين الناس وبين الحق إلا فساد القلوب بالأمراض ﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ ﴾[3] ﴿ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ﴾[4] ولا دفع الناس في طريق الغي إلا مرض القلوب أو عماها ﴿ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ ﴾[5] فورود

---

(١) الفتاوى ١٠/ ١٤١.

(٢) إغاثة اللهفان ١/ ٢٥، ٢٦.

(٣) سورة الأحزاب الآية: ١٢.

(٤) سورة النور الآية: ٥٠. (٥) سورة الأحزاب الآية: ٣٢.

الشبهات والشهوات على القلوب يقوي مرضها ومعروف أن إزالة المرض بالضد في مرض الجسم الطبيعي، وكذلك مرض القلب النفساني الديني الشرعي[1]، وما دامت أمراض القلوب محصورة في محورين كبيرين هما مرض الشبهة ومرض الشهوة، فإن شفاء القلوب منهما موقوف على ما يزيلهما وهو ما سيجري تفصيله في مبحث أدوية القلوب بإذن الله.

---

(١) انظر: الفتاوى ١٠/١٤٦.

ثانياً: مرض الشبهة:

* خقيقته
* علاماته

١ ـ حقيقة مرض القلب بالشبهة:

حقيقة مرض القلب بالشبهة هو خروج القلب عن حد الاعتدال فيما يتعلق بإدراكه وإرادته من جراء الشك والريب حيث تفسد الاعتقادات والإرادات أو يفسد العلم والقصد. ذلك أن الله سبحانه وتعالى الذي ميز الإنسان بالعقل جعل القلب السليم عدته في الإدراك السليم والإرادة الصحيحة أو أداة الإنسان في صحة العلم والقصد.

وخروج القلب عن حد السلامة بالشبهة يفسد على المرء تصوره وإدراكه وإرادته بحيث يصبح عرضة للضياع والهلاك ويتعذر عليه ما خلق له من المعرفة بالله ومحبته والشوق إلى لقائه والإنابة إليه وإيثار ذلك على كل شهوة(١)، ومن هنا برزت أهمية التعرف على حقيقة

(١) انظر: إغاثة اللهفان ص ١١٣ ومختصر مدارج القاصدين ص ١١٥.

مرض القلب بالشبهة وكيف يعالج منها.

وقد أطنب شيخ الإسلام ابن تيمية في وظيفة القلب وما خلق له، وكيف أن استخدامه في غير ما خلق له مما يؤدي إلى هلاك الإنسان وذلك حيث يقول(١):

«إن الله سبحانه وتعالى خلق القلب للإنسان ليعلم به الأشياء، كما خلق العين يرى بها الأشياء، والأذن يسمع بها الأشياء، كما خلق له كل عضو من أعضائه لأمر من الأمور، وعمل من الأعمال، فاليد للبطش، والرجل للسعي، واللسان للنطق، والفم للذوق، والأنف للشم، والجلد للمس، وكذلك سائر الأعضاء الباطنة والظاهرة. فإذا استعمل الإنسان العضو فيما خلق له، وأعدّ من أجله فذلك هو الحق القائم والعدل الذي قامت به السماوات والأرض، وكان ذلك خيراً وصلاحاً لذلك

---

(١) رسالة في القلب وأنه خلق ليعلم له الحق ويستعمل فيما خلق له ص ١٣ ـ ١٧، تحقيق سليم عيد الهلالي، دار ابن الجوزية، الدمام، ط ١، ١٤١١ هـ.

العضو ولربه وللشيء الذي استعمل فيه وذلك الإنسان هو الصالح الذي استقام حاله ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝ ﴾[1].

وإذا لم يستعمل العضو في حقه بل ترك بطالاً فذلك خسران وصاحبه مغبون، وإن استعمل في خلاف ما خلق له فهو الضلال والهلاك وصاحبه من الذين بدلوا نعمة الله كفراً، ثم إن سيد الأعضاء ورأسها هو القلب كما سمى قلباً. قال النبي ﷺ: «إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب» وقال ﷺ: «الإسلام علانية والإيمان في القلب ثم أشار بيده إلى صدره وقال ألا إن التقوى ها هنا».

وإذ قد خلق لأن يعلم به فتوجهه نحو الأشياء ابتغاء العلم بها هو الفكر والنظر. كما أن إقبال الكلام ابتغاء سمعه هو الإصغاء والاستماع وانصراف الطرف إلى الأشياء طلباً لرؤيتها هو النظر. فالفكر للقلب كالإصغاء

---

(١) سورة البقرة الآية: ٥.

للأذن ومثله نظر العين كما سبق، وإذا علم ما نظر فيه فذاك مطلوبه كما أن الأذن إذا سمعت ما أصغت إليه، أو العين إذا أبصرت ما نظرت إليه.

وكم من ناظر مفكر لم يصب العلم ولم ينله، كما أنه كم من ناظر إلى الهلال لا يبصره، ومستمع إلى صوت لا يسمعه، وعكسه من يؤتى علماً بشيء ولم ينظر فيه ولم تسبق سابقة فكر فيه، كمن فاجأته رؤية الهلال من غير قصد إليه أو سمع قولاً من غير أن يصغي إليه، وذلك لأن القلب بنفسه يقبل العلم، وإنما الأمر موقوف على شرائط واستعداد وقد يكون فعلاً من الإنسان فيكون مطلوباً، وقد يأتي فضلاً من الله فيكون موهوباً.

فصلاح القلب وحقه الذي خلق من أجله هو أن يعقل الأشياء ولا أقول يعلمها، فقد يعلم الشيء من لا يكون عاقلاً له، بل غافلاً عنه ملقياً له، والذي يعقل الشيء هو الذي يقيده، ويضبطه ويعيه ويثبته في قلبه فيكون وقت الحاجة إليه غنياً فيطابق عمله قوله، وباطنه

ظاهره، وذلك هو الذي أوتي الحكمة ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾[1]، ثم إذا كان حق القلب أن يعلم الحق فإن الله هو الحق المبين ﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾[2].. فإذا كان القلب مشغولاً بالله عاقلاً للحق مفكراً في العلم، فقد وضع في موضعه، كما أن العين إذا صرفت إلى النظر إلى الأشياء فقد وضعت في موضعها، أما إذا لم يصرف إلى العلم ولم يوع فيه الحق فقد نسي ربه، فلم يوضع في موضع بل هو ضائع ولا يحتاج أن نقول قد وضع في غير موضعه، بل لم يوضع أصلاً فإن موضعه هو الحق، وما سوى الحق باطل، فإذا لم يوضع في الحق لم يبق إلا الباطل، والباطل ليس بشيء أصلاً، وما ليس بشيء أحرى أن لا يكون موضعاً.

والقلب هو نفسه لا يقبل إلا الحق، فإذا لم يوضع فيه فإنه لا يقبل غير ما خلق له ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن

---

(١) سورة البقرة الآية: ٢٦٩.

(٢) سورة يونس الآية: ٣٢.

قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾[1] وهو مع ذلك ليس بمتروك مخلىً فإنه لن يزال في أدوية الأفكار وأقطار الأماني لا يكون على الحال التي تكون عليها العين والأذن من الفراغ والتخلي، فقد وضع في غير موضع لا مطلق ولا معلق، موضوع لا موضع له، وهذا من العجب، فسبحان ربنا العزيز الحكيم، وإنما تنكشف للإنسان عند رجوعه إلى الحق إما في الدنيا عند الإنابة أو عند المنقلب إلى الآخرة»[2].

ونصوص القرآن التي سيقت في المنافقين في مبحث أقسام القلوب باعتبار أصحابها كلها شواهد على مرض القلوب بالشبهات.

غير أن الشبه التي ترد على القلوب كثيرة ومتنوعة ليست محصورة في باب النفاق وكلها أو كثير منها ما لم يدفع يؤدي إلى الزيغ والضلال يقول الرسول ﷺ: «يأتي

---

(١) سورة الفتح الآية: ٢٣.
(٢) المرجع السابق ص ٢١ ـ ٢٢.

الشيطان أحدكم فيقول من خلق كذا، من خلق كذا حتى يقول من خلق الله فإذا بلغه فليستعذ بالله ولينته» وفي لفظ: «فليقل آمنت بالله ورسله» (١) وفي لفظ آخر: «إن الله تعالى يقول إن أمتك لا يزالون يساءلون حتى يقولوا هذا الله خلق كل شيء فمن خلق الله» (٢) وهو دليل صريح على مبلغ حرص الشيطان لعنه الله على إغواء الناس بوسوسته وإلقائه في القلوب ليشكّك الناس في الإيمان بربهم.

وفي هذه الوسوسة يقول ابن قيم الجوزية: «فإن الشيطان يصادف أرض القلب خالية فارغة فيبذر فيها حب الأفكار الردية فيتولد منه الإرادات والعزوم فيتولد منها العمل» (٣)، وكثير من النفوس يألف أصحابها الخواطر الردية (٤) عياذاً بالله.

وما أكثر الشبهات في عصرنا الحاضر، فكل

---

(١) الحديث متفق عليه.

(٢) كتاب الإيمان لابن منده، المجلد الثاني ص ٤٨٣.

(٣) مفتاح دار السعادة جـ ١ ص ١٨٣.

(٤) انظر: تزكية النفس ص ٢٢.

التيارات الفكرية الضالة التي تشغل الناس وتمثل أساس كثير من الممارسات الإعلامية على مستوى العالم الإسلامي اليوم مثل العلمانية والقومية والوطنية والاشتراكية بل والشيوعية، فالمسلم اليوم كالقابض على الجمر من كثرة المعارضين وكثرة الفتن المضلة فتن الشبهات والشكوك والإلحاد وفتن الشهوات[1] حيث يترتب على كثير من هذه الفتن اعتقاد غير الحق المفضي إلى مرض القلب بل موته أحياناً كثيرة عياذاً بالله.

وفي انشغال القلب بهذا الضرب من الباطل يقول ابن تيمية رحمه الله[2]: «إذا شغلته بما لم يخلق له فصرفته إلى الباطل حتى صار موضوعاً فيه ثم الباطل على منزلتين إحداهما تشغل عن الحق ولا تعانده مثل الأفكار والهموم التي من علائق الدنيا وشهوات النفس والثانية تعاند الحق وتصدّ عنه مثل الآراء الباطلة والأهواء المردية من الكفر والنفاق والبدع وشبه ذلك»

---

(١) انظر: بهجة القلوب ص ٣٦٨، مرجع سابق.

(٢) رسالة في القلب ص ٢٧، مرجع سابق.

وأعظم بهذا خطراً.

٢ ـ علامات مرض القلب بالشبهة:

ذكر العلماء جملة من العلامات تدل دلالة واضحة على مرض القلب بالشبهات، وينبغي لمن وجد في نفسه أي علامة منها أن يسارع إلى معالجة قلبه.

ومن أبرز تلك العلامات وأظهرها اتباع المتشابه من القرآن، وإظهار الإيمان باللسان دون مواطئة القلب والتمرد على حكم الله ورسوله، والمسارعة في موالاة الكافرين، والرغبة في المعصية والتقاعس عن الجهاد، وعدم إيلام جراحات القبائح وجهل الحق، ومجمع ذلك عدول القلب المريض عن الأغذية النافعة الموافقة له إلى الأغذية الضارة وعدوله كذلك من دوائه النافع إلى دائه الضار (١).

---

(١) انظر: القلب لأحمد عز الدين البيانوني ص ١٠٢، ١٠٨، وانظر إغاثة اللهفان جـ ١ ص ١١٣، وانظر مختصر منهاج القاصدين ص ١٥٥.

وهي علامات مستخلصة من النصوص القرآنية التي سبق إيرادها في مبحث أنواع القلوب باعتبار أصحابها مما يغني عن إعادتها هنا. والله أسأل أن يجعل قلوبنا صحيحة سليمة قانتة لله منيبة إليه إنه ولي ذلك والقادر عليه.

٣ ـ حقيقة مرض القلب بالشهوة:

بيَّنا فيما مضى أن مرض القلب بصورة عامة هو خروجه عن حد الاعتدال أو هو تألم القلب والفساد فيه.

ونقول هنا إن مرض القلب بالشهوة إنما هو الحبّ والبغض الخارجين عن حدّ الاعتدال وهي الأحوال التي قال الله فيها[١]: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ﴾[٢] فالميل عن الاعتدال سقم ومرض، والأهواء أدواء القلوب، وهناك تلازم بين: شهوة الهوى، ومدار اعتلال القلوب وأسقامها إنما هو على أصلين فساد العلم وفساد القصد كما يقول ابن قيم الجوزية. وفي قوله

---

(١) انظر: الفتاوى جـ ١٠ ص ١٤٣. (٢) سورة القصص الآية: ٥٠

سبحانه وتعالى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾(١)، غنية عن كل قول لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

ولا شكّ أن الأخلاق الرذيلة وهي من مرض القلب مردّها إلى المرادات الفاسدة في النفس الإنسانية.

وأصل مرض القلب بالشهوة محبة النفس لما يضرها وقد يقترن به بغضها لما ينفعها، وهذا كله فساد في القلب في تصوره وإرادته بل فساد في حسِّه وحركته الطبيعية، نسأل الله أن يعافي قلوبنا من كل داء، ونعوذ به من منكرات الأخلاق والأهواء والأدواء.

والشهوات باب واسع يدخل تحته كل مشتهى، ومن المشتهيات مباح ومنها ما هو محرم، ومفسدات القلوب هي الشهوات المحرمة ومنها تتولد أمراض

---

(١) سورة النازعات الآيات: ٣٧، ٣٨، ٣٩، ٤٠، ٤١.

القلوب، الشح والبخل والحسد والغل والحقد، والجهل والغيّ والغمّ والهمّ والحزن والغيظ والكبر والعجب والظّلم وغيرها من الأمراض التي لا تدخل تحت حصر أعاذنا الله منها، ولكن يجمعها اتّباع الهوى بغير هدى من الله وفي ذلك يقول الله جلّ جلاله: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾﴾(١) وقوله جل جلاله: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾﴾(٢) وفيه أيضاً يقول الرسول ﷺ: «تعس عبد الدرهم، تعس عبد الدينار، تعس عبد القطيفة، تعس عبد الخميصة، تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش، إن أعطي رضي وإن منع سخط»(٣).

---

(١) سورة الجاثية الآية: ٢٣.

(٢) سورة القصص الآية: ٥٠.

(٣) أخرجه البخاري.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية معلقاً على الحديث:

«وهذا حال من كان متعلقاً برئاسة أو بصورة أو نحو ذلك من أهواء نفسه إن حصل له رضي وإن لم يحصل له سخط، فهذا عبد ما يهواه من ذلك وهو رقيق له إذ الرقّ والعبودية في الحقيقة هو رقّ القلب وعبوديته، فما استرق القلب واستعبده فهو عبده»(١).

ومن بلغ به مرض القلب هذا الحدّ عياذاً بالله فإنّه في أمسّ الحاجة إلى علاج لأنه لا شك يتعذر عليه معرفة الحق من الباطل وتمييز الخير من الشرّ والغيّ من الرشاد وتلك منزلة عظيمة في مرض القلب نستجير بالله(٢).

والعشق المحرم من الأمراض القلبية التي تفسد على المرء دينه وعرضه وقد تفسد عليه عقله وجسمه،

---

(١) طب القلوب ص ١٣٠ جمع مادته وأجرى حواره د. عجيل جاسم النشمي، الكويت، دار الدعوة ١٤١١ هـ.

(٢) انظر: طب القلوب لابن تيمية ص ١٤٢.

وليس من الحكمة ولا من العقل طلب الشفاء بالفجور بالمعشوق كما يتصوره كثير من الناس بل على العكس من ذلك فإن ذلك يزيد مرضه ويوجب له أمراضاً أخرى أصعب من مرض العشق[1]، فإن من في قلبه مرض الشهوة وإرادة الصورة متى خضع المطلوب طمع المريض فتقوى الإرادة والطلب ويقوى المرض[2]، عياذاً بالله. مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ﴾[3].

وصور الخلل في حياة الناس اليوم كثيرة من جراء تشعب الأهواء وطغيان الهوى، ومنها التفرق والتمزق التي تحدث في المجتمع بسبب ترك هذه الشريعة حتى تفشت في الناس منكرات القلوب من الغلّ والحقد والحسد والبغضاء والتناحر وما يترتب على اختلاف

---

(١) إغاثة اللهفان جـ ١ ص ٢٨، ٢٩.

(٢) الفتاوى جـ ١٠ ص ١٣٤.

(٣) سورة الحج الآية: ٥٣.

القلـوب مـن اختـلاف التـوجهـات والآراء والأقـوال والأعمال[1] وانتشار ما كره الله لعباده من كثرة القيل والقال باعتباره من دواعي الكذب وعدم التثبت واعتقاد غير الحق، ومن أسباب وقوع الفتن وتنافر القلوب الاشتغال بالأمور الصّادّة عن الأمر النافعة في حياة الناس مما يتنافى مع ما يحبه الله لعباده[2]. نسأل الله السلامة والعافية.

ولأمراض القلوب هذه أدوية يرد ذكرها في موضعه المناسب بإذن الله.

---

(١) سلمان العودة، وسائل دفع الغربة، ص ١٠٨، دار الجوزي، الرياض، ط ١، ١٤١٢ هـ.

(٢) بهجة القلوب ص ٣٤٦، مرجع سابق.

ثالثاً: علامات مرض القلب بالشهوة:

أبرز وأظهر علامات مرض القلب بالشهوة هو الميل والرغبة في المعصية وذلك من قوله تعالى: ﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّۚ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ ﴾[1] وهو الزنا كما ذهب إليه المفسرون[2].

لكن العلامات الأخرى التي جرى إيضاحها في مرض القلب بالشبهة يدخل كثير منها أيضاً هنا كالمسارعة في موالاة الكافرين طمعاً في المال والجاه والتقاعس عن الجهاد حباً في النفس والمال وبخلاً بها عياذاً بالله.

فمن وجد في نفسه شيئاً من تلك العلامات فعليه المسارعة والمبادرة إلى معالجة قلبه بالأدوية التي سنفصلها في مبحث قادم بإذن الله.

---

(١) راجع تفسير ابن كثير وفتح القدير للشوكاني وغيرهما من التفاسير.

(٢) سورة الأحزاب الآية: ٣٢.

المبحث الخامس:

أدوية القلوب

وفيه:

- ♥ أهمية علاج القلوب.
- ♥ أنواع الأدوية.
- ♥ أدوية أمراض القلوب بالشبهات.
- ♥ أدوية أمراض القلوب بالشهوات.
- ♥ كيفية الوقاية من مرض القلب.
- ♥ كيفية المحافظة على صحة القلب وسلامته.
- ♥ منهج أهل السنة في تزكية القلوب.

أولاً: أهمية علاج القلوب:

لما كان المدار على القلب كما أخبر الرسول ﷺ: «ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله»(١) وكان القلب بذلك كالملك للأعضاء وهو المسئول عنها، كان الاهتمام بتصحيحه وتسديده أولى ما اعتمد عليه السالكون. والنظر في أمراضه وعلاجها أهم ما تنسك به الناسكون(٢).

لكن الناس اليوم غافلون عن هذه الحقيقة إلا من عصم ربي، فليس لأمراض القلوب من الاهتمام ما لأمراض الأبدان مع أن صحة القلب من حيث الأهمية للإنسان تفوق صحة البدن أضعاف المرات.

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم فهو متفق عليه.

(٢) انظر: طب القلوب لابن قيم الجوزية ص ٢١٩.

ولما كان الرسول ﷺ قد أخبر عن إمكانية علاج الأمراض في قوله: «ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء»(١) فإن عدم السعي لعلاج أمراض القلوب قد يكون فيه رغبة عن ترغيب الرسول ﷺ في المداواة لأن عموم الحديث يقتضي أن جميع الأمراض الباطنة والظاهرة لها أدوية تقاومها، تدفع ما لم ينزل وترفع ما نزل بالكلية أو تخففه(٢).

وذلك ما ليس مستساغاً ولا مقبولاً من مسلم صادق الإيمان، ومما لا شك فيه أنه إذا ترك علاج القلوب من الأمراض التي تعرض لها استفحل أمرها، ومتى أهمل تطهير النفوس من أدران النقائص والرذائل عظم خطرها وانتشر الفساد وهلك العباد وزاد البلاء وساء حال المجتمع(٣).

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الطب.

(٢) انظر: بهجة القلوب ص ٢٤٥.

(٣) انظر: هداية المرشدين، علي محفوظ، ص ٨٣.

ومما يؤكد أهمية علاج أمراض القلوب أن الطب النفسي يقف اليوم عاجزاً عن كثير من الأمراض العصرية التي أصبحت أمراضاً مزمنة للأجيال تلو الأجيال ومنها ما يؤلم المرء ويعزله عن بني جنسه، ومنها ما يضطرب بفكره حتى يشوش عليه عقله، ومنها ما يتملك هواجس المرء وأحاسيسه ومشاعره حتى يفقد سيطرته على نفسه، وكم من أناس فقدوا شخصيتهم أو فقدوا عقولهم أو أصبحت الحياة سجنهم وعذابهم.

من ذلك يتبين أن طبّ القلوب بمعناه الاصطلاحي علم رفيع شأنه دقيقة مسالكه، صعبة مراقيه لا يسلك طريقه ويرتقي مدارجه إلا مؤمن ذو قلب صالح سليم شديد الحساسية، والشفافية صلته بالله وثيقة موثقة، وقلبه متعلق ومشرئب للآخرة، يرجو على حذر ووجل(١)، ولا شك أن الشفاء إنما يحصل لمن يتعهد الدواء وهم المؤمنون وضعوا دواء القرآن على داء

(١) انظر: طب القلوب لابن تيمية ص ١٥.

قلوبهم [1].

ونحن في هذا الكتاب لا ندعي ما مرّ ولكن ذكرى لعلهم يتقون ذلك أن خراب القلوب من الأمراض والغفلة وعمارتها الخشية والذكر [2] نسأل الله أن يجعلنا من أصحابها.

---

(١) الفتاوى جـ ١٠ ص ١٤٣.

(٢) الفوائد لابن قيم الجوزية ص ١١١.

ثانياً: أنواع أدوية أمراض القلوب:

مـرَّ معنـا فيمـا مضـى أن أمـراض القلـوب كثيـرة ومتنوعة وإن كان يمكن إرجاعها إلى أصلين كبيرين هما مـرض الشبهـة، ومـرض الشهـوة لذلك فإن الأدوية أيضاً ينبغي أن تتنوع لتكافىء الأمراض، لكن كذلك يمكن إرجاع الأدويـة كلهـا إلى نـوعين همـا الأدويـة الطبيعيـة والأدوية الشرعية الإيمانية.

يقول ابن قيم الجوزية في بيان هذا: «فالغيظ يؤلم القلب وشفاؤه في شفاء غيظه، فإن شفاه بحق اشتفى وإن شفاه بظلم وباطل زاده مرضا.. وكذلك الغمّ والهمّ والحزن أمراض للقلب وشفاؤها بأضدادها من الفرج والسرور، فإن كان ذلك بحق اشتفى القلب وصحّ وبرأ من مرضه، وإن كان بباطل توارى ذلك واشتدَّ ولم يزل وأعقبه أمـراضٌ هـي أصعـب وأخطـر، وكـذلـك الجهـل

مرض يؤلم القلب.. وكذلك الشاكّ في الشيء المرتاب فيه يتألم قلبه حتى يحصل له العلم واليقين، والمقصود أن من أمراض القلوب ما يزول بالأدوية الطبيعية ومنها ما لا يزول إلا بالأدوية الشرعية الإيمانية»(١).

وشفاء المريض لا شكّ بزوال مرضه وألمه. ومن الأمراض القلبية ما قد لا يتألم منه صاحبه، لكن الحقيقة أن القلب المريض لا يحسُّ بالألم لفساده ولأن سكرة الجهل والهوى تحول بينه وبين إدراك الألم(٢)، ومن الأمراض القلبية «مرض مؤلم في الحال كالهمّ والتحزن والغيظ وهذا المرض قد يزول بأدوية طبيعية كإزالة أسبابه أو بالمداواة بما يضادّ تلك الأسباب، وأما أمراضه التي لا تزول إلا بالأدوية الإيمانية النبوية، فهي التي توجب له الشقاء والعذاب الدائم إن لم يتداركها بأدويتها المضادة لها» فعلى الذين يتعرضون لهذه الأمراض أن

---

(١) إغاثة اللهفان جـ ١ ص ٢٨، ٢٩.

(٢) انظر: طب القلوب لابن قيم الجوزية ص ١٦٨، ١٧٣، ١٧٤.

يبادروا إلى معالجتها بالأدوية المناسبة لها أعاذنا الله من جميع الأدواء والآفات والأسقام والأوجاع.

ثالثاً: أدوية أمراض القلوب بالشبهات:

قد مضى أن الشبه التي تعرض للإنسان في هذا العصر كثيرة وأن غاية مثيريها إنما هي تشكيك الناس في دينهم ولا يزيل الشك والريب إلا اليقين. وقد تضمن كتاب الله من اليقين ما به الشفاء التام قال جلّ جلاله: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾[1] وقال جلّ جلاله: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾[2]، ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ﴾[3]، وفي تضمن القرآن لدواء أمراض القلوب يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «والقرآن شفاء لما في الصدور ومن في قلبه أمراض الشبهات

---

(١) سورة الإسراء الآية: ٨٢.

(٢) سورة يونس الآية: ٥٧.

(٣) سورة فصلت الآية: ٤٤.

والشهوات، ففيه من البيان ما يزيل الحق من الباطل فيزيل أمراض الشبهة المفسدة للعلم والتصور والإدراك بحيث يرى الأشياء على ما هي عليه.. فالقرآن مزيل للأمراض الموجبة للإرادات الفاسدة حتى يصحَّ القلب فتصلح إرادته ويعود إلى فطرته التي فطر عليها كما يعود البدن إلى الحال الطبيعي، ويغتذي القلب بالإيمان والقرآن بما يزكيه ويؤيده كما يغتذي البدن بما ينمّيه ويقويه فإن زكاة القلب مثل زكاة البدن»(١) .

وفيه أيضاً يقول ابن قيم الجوزية: «قد تقدم أن جماع أمراض القلوب هي أمراض الشبهات والشهوات، والقرآن شفاء للنوعين، ففيه من البينات والبراهين القطعية ما يبيّن الحق من الباطل فتزول أمراض الشبهة المفسدة للعلم والتصور والإدراك بحيث يرى الأشياء على ما هي عليه، وليس تحت أديم السماء كتاب متضمن للبراهين والآيات على المطالب العالية من

(١) الفتاوى جـ ١٠ ص ٩٦.

التوحيد وإثبات الصفات وإثبات المعاد والنبوات وردّ النِّحل الباطلة والآراء الفاسدة مثل القرآن، فهو الشفاء على الحقيقة من أدواء الشبه والشكوك» (١).

وبعد القرآن تأتي سنَّةُ الرسول ﷺ، وقد أرشد عليه الصلاة والسلام إلى علاج مرض القلب بالشبهة في حديث الوسوسة الذي مرَّ من قبل وفيه ثلاث مسائل:

١ ـ الانتهاء.

٢ ـ التعوذ بالله من الشيطان.

٣ ـ أن يدفعه بما يضاده من الإيمان بالله ورسله.

«فهذا الإيمان الصادق اليقيني يدفع ما يضادّه من الشبهة المنافية له، فإن الحقّ يدفع الباطل والشكوك لا تعارض اليقين، فهذه الأمور الثلاثة التي ذكرها النبي ﷺ تبطل هذه الشبهة التي لا تزال على ألسنة الملاحدة يلقونها بعبارات متنوعة، فأمر بالانتهاء الذي يبطل التسلسل الباطل، وبالتعوذ من الشيطان الذي هو الملقي

(١) إغاثة اللهفان جـ ١ ص ٧٣، ٧٥.

لهذه الشبه، وبالإيمان الصحيح الذي يدفع كل ما يضادّه من الباطل والحمد لله، فبالانتهاء قطع الشر مباشرة، وبالاستعاذة قطع السبب الداعي إلى الشرّ، وبالإيمان اللجأ والاعتصام بالاعتقاد الصحيح اليقيني الذي يدفع كل معارض. وهذه الأمور الثلاثة هي جماع الأسباب الدافعة لكل شبهة تعارض الإيمان» (١) فتنبغي العناية بها كلما عرضت شبهة أو اشتباه.

والاتصال بالله علاج للقلوب من كل أمراضها ومن شأن الصلة القوية بالله سبحانه وتعالى الارتباط بالوحي بشقيه القرآن والسنة وهما جماع دواء القلوب.. يقول ابن قيم الجوزية مبيناً الفرق الشاسع بين هذا الدواء والأدوية الحسية «نسبة ما عندهم من الطبّ إلى هذا الوحي كنسبة ما عندهم من العلوم إلى ما جاءت به الأنبياء، بل ها هنا من الأدوية التي تشفي من الأمراض ما لم يهتد إليها عقول أكابر الأطباء ولم تصل إليها

---

(١) بهجة القلوب ص ٤١، ٤٣.

علومهم وتجاربهم وأقيستهم من الأدوية القلبية والروحانية، وقوة القلب واعتماده على الله، والتوكل عليه والالتجاء إليه، والانطراح والانكسار بين يديه والتذلل له، والصدقة والدعاء والتوبة والاستغفار والإحسان إلى الخلق وإغاثة الملهوف والتفريج عن المكروب. فإن هذه الأدوية لها من التأثير في الشفاء ما لا يصل إليه علم أعلم الأطباء ولا تجربته ولا قياسه.

ولكن لأسباب متنوعة فإن القلب متى اتصل بربِّ العالمين وخالق الداء والدواء مدير الطبيعة ومصرفها على ما يشاء كانت له أدوية أخرى غير الأدوية التي يعاينها القلب البعيد منه المعرض عنه»(١) عياذاً بالله.

فكل من تعرض لمرض القلب بالشبهة فليفر إلى الله بصدق ويتخذ من القرآن تلاوةً وتدبراً وفهماً وعملاً وتحكيماً واستشفاء بلسماً شافياً لمرضه وكذلك عليه تقوية صلته بحديث رسول الله ﷺ قراءة وفهماً وتدبراً

---

(١) طب القلوب ص ٦٨.

وعملاً باعتبار التمسك بهما أقرب السبل الموصلة إلى الله ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ﴾ (١) نسأل الله أن يهدينا سواء السبيل وأن يرزقنا سلوك سبيله المستقيم وأن يبعدنا عن سلوك سبل الشيطان إنه ولي ذلك والقادر عليه.

---

(١) سورة الأنعام الآية: ١٥٣.

رابعاً: أدوية أمراض القلوب بالشهوات:

كما كان القرآن شفاء لأمراض القلوب بالشبهات فإنه كذلك شفاء لأمراض القلوب بالشهوات ففيه من الحكمة والموعظة الحسنة بالترغيب والترهيب والقصص التي فيها عبرة ما يوجب صلاح القلوب فترغب فيما ينفعها وترغب عما يضرها فيكون القلب محبّاً للرشاد مبغضاً للغيّ بعد أن كان مريداً لهما[1]، وكذلك ما في القرآن من التزهيد في الدنيا والترغيب في الآخرة وضرب الأمثال وبيان أحوال من تنكّبوا الصراط المستقيم، فهو بذلك كلّه مزيلٌ للأمراض الموجبة للإرادات الفاسدة فيصلح القلب وتصلح إرادته ويعود إلى فطرته فتصحّ أفعاله الكسبية الخيرية[2].

(١) انظر: الفتاوى جـ ١٠ ص ٩٥.

(٢) انظر: إغاثة اللهفان جـ ١ ص ٧٣ ـ ٧٥.

ولا شك أن التقوى والصبر والإنابة إلى الله والخوف منه في مقدمة أدوية القلوب المرضى بالشهوة «وليس المقصود قمع هذه الصفات الذميمة بالكلية وإنما المطلوب من الرياضة ردّ الشهوة إلى الاعتدال الذي هو وسيط بين الإفراط والتفريط»[١].

وكذلك التوبة علاج لمرض القلب بالشهوة فإن القلب إذا تخلص من الذنوب بالتوبة فقد استفرغ من تخليطه فتخلصت قسوة القلب وإرادته للخير فاستراح من تلك الجوانب الفاسدة والموارد الردية، فزكا ونما وقوي واشتدّ[٢]. يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «وكذلك القلب إذا تاب من الذنوب كان استفراغاً من تخليطاته حيث خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً فإذا تاب من الذنوب تخلصت قوة القلب وإرادته للأعمال الصالحة واستراح القلب من تلك الحوادث الفاسدة التي كانت فيه»[٣].

---

(١) مختصر منهاج القاصدين ص ١٥٢.

(٢) إغاثة اللهفان جـ ١ ص ٧٧.

(٣) الفتاوى جـ ١٠ ص ٩٦ ـ ٩٧.

والعدل أيضاً من أدوية القلوب المريضة بالشهوة ذلك أن صحة القلب وصلاحه في العدل ومرضه من الزيغ والظلم والانحراف(١)، وقبل ذلك معرفة القلب ربه: «فإن صلاح القلوب أن تكون عارفة بربها وفاطرها وبأسمائه وصفاته وأفعاله وأحكامه وأن تكون مؤثرة لمرضاته ولمحابه متجنبة لمناهيه ومساخطه ولا صحة ولا حياة إلا بذلك ولا سبيل إلى تلقيه إلا من جهة الرسل»(٢).

يقول الشيخ السعدي رحمه الله في بيان أهمية الإيمان لصلاح القلوب «فالله غرس شجرة الإيمان في قلوب المؤمنين بحسب إيمانهم وقدر من ألطافه وفضله من الواجبات والسنن ما يقي هذه الشجرة وينميها ويدفع عنها الآفات حتى تكمل وتؤتي أكلها كل حين بإذن ربها»(٣)، وفي دعائه ﷺ: «اللهم إني أسألك الهدى

---

(١) المرجع نفسه ص ٩٩.

(٢) طب القلوب لابن قيم الجوزية ص ٦٣، ٦٥.

(٣) بهجة القلوب ص ١٠٥.

والتقى والعفاف والغنى»[1] إرشاد إلى سبل العلاج تلك.

«فالهدى: هو العلم النافع والتقى: العمل الصالح وترك المحرمات كلها، هذا صلاح الدين وتمام ذلك بصلاح القلب وطمأنينته بالعفاف عن الخلق والغنى بالله، ومن كان غنياً بالله فهو الغني حقاً وإن قلّت حواصله، فليس الغني عن كثرة العرض إنما الغني غني القلب»[2] وعلى ذلك فالدين الحنيف هو الدواء المفيد لشفاء القلوب من أمراضها[3] «فالأمور النافعة في الدين ترجع إلى أمرين: علم نافع، وعمل صالح، أما العلم النافع: فهو العلم المزكى للقلوب والأرواح المثمر لسعادة الدارين»[4].

---

(١) رواه مسلم.

(٢) بهجة القلوب ص ١٤٥.

(٣) بهجة القلوب ص ٨٣.

(٤) بهجة القلوب ص ٥٤، ٥٥.

والاستعانة بالله والحرص على ما ينفع الإنسان تنفيذاً لأمر الرسول ﷺ: «احرص على ما ينفعك واستعن بالله» (١) من أعظم الطرق لراحة القلب وأدعى لحصول القناعة والحياة الطيبة (٢).

والزهد في الدنيا والعمل للآخرة من أقوم السبل لصلاح القلوب يقول ابن حزم: «إذا تعقبت الأمور كلها فسدت عليك وانتهيت في آخر فكرتك باضمحلال جميع أحوال الدنيا إلى أن الحقيقة إنما هي العمل للآخرة فقط ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ﴾ (٣) لأن كل أمل ظفرت به فعقباه حزن إما بذهابه عنك أو بذهابك عنه ولا بدّ من أحد هذين الشيئين إلا العمل لله عز وجل فعقباه على كل حال سرورٌ في عاجلٍ وآجلٍ؛ أما العاجل فقلة الهم بما يهتم به النّاس وإنه به معظم من الصديق والعدو وأما في الآجل فالجنة» (٤).

---

(١) رواه مسلم ٢٦٦٤ من حديث أبي هريرة.

(٢) بهجة القلوب ص ٥٨.

(٣) سورة الأنفال الآية: ٦٧.

(٤) الأخلاق والسير في مداواة النفوس ص ١٣.

وصدق التوجه إلى الله سبحانه وتعالى من أنفع أدوية القلوب وعلاج لكثير من أمراضها وخاصة مرض الهمّ الذي قلَّ من يسلم منه يقول ابن حزم في بيان ذلك: «وليس في العالم منذ كان إلى أن يتناهى أحد يستحسن الهمَّ ولا يريد طرده عن نفسه فلما استقرَّ في نفسي هذا العلم الرفيع وانكشف هذا السرُّ العجيب وأنار الله تعالى لفكري هذا الكنز العظيم بحثت عن سبيل موصلة على الحقيقة إلى طرد الهمّ الذي هو المطلوب للنفس الذي اتفق جميع أنواع الإنسان الجاهل منهم والعالم والصالح والطالح على السعي له فلم أجدها إلا التوجه إلى الله عز وجل بالعمل للآخرة»(١) وصدق والله.

ونختتم الحديث عن أدوية مرض القلب بالشهوة بكلام سيد قطب رحمه الله في تفسير قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾﴾(٢) يقول: «المنهج

---

(١) المرجع السابق ص ١٤، ١٥. (٢) سورة الأعراف الآية: ١٠٠.

القرآني حين يستخدم هذا التحذير إنما يعالج أطوار النفوس والقلوب المثقلة ويطبِّب كلاًّ منها بالطبّ المناسب في الوقت الملائم فيعطيها جرعة من الأمن وجرعة من الخوف والحذر والترقب لبأس الله»[١]

(١) في ظلال القرآن جـ ٣ ص ١٣٤١.

خامساً: الوقاية من أمراض القلوب:

لما كانت الشبهات والشهوات هي محور مرض القلب فإن المسلم العاقل عليه أن يحذر منها غاية الحذر وقاية لقلبه من المرض، فبتحقيق الإيمان الكامل يحصل اليقين القائم على البينة والبرهان، وبه تدفع الشبهات، وبتحقيق التقوى والاستقامة على الحق والصبر على ذلك تدفع الشهوة، وذلك ما يمكن استنباطه من النصوص القرآنية التي تضمنت هذه الأدواء فيما مضى، والنصوص القرآنية والنبوية الأخرى التي لم تذكر حرصاً على عدم الإطالة.

فلا شك أن التوجيهات الربانية في تلك النصوص وغيرها هي من أقوى مصادر القوة الإيمانية والعاطفة الدينية التي لا تزال الأمة تقتبس منها شعلة الإيمان لتوقد محاجر القلوب في مواجهة الرياح المادية العاتية التي

تحاول إخماد هذه المحاجر[1]، وذلك مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾[2] وقوله: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ۝٢٩ ﴾[3] وقوله سبحانه: ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ۝٣٠ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَـٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَـٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ﴾[4].

والعمل بهذه النصوص وحدها والوقوف عندها كفيل بتحقيق الوقاية لقلب المسلم من المرض «فالقلوب أوعية كالأدوية فلا بد من تزكية لصدّ الشهوات والشبهات، فباليقين تذهب الشبهات، وبالصبر تذهب

---

(١) انظر: المطهرة ص أ، ص ٣.

(٢) سورة الأنفال الآية: ٢٤.

(٣) سورة الأنفال الآية: ٢٩.

(٤) سورة النور الآيتان: ٣٠، ٣١.

الشهوات حتى يتحقق للمرء صلاح قلبه حيث علّق الانتفاع بالدين بصلاح القلب»[1] ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾[2].

ونختم الحديث عن وقاية القلوب من المرض بكلام لابن قيم الجوزية حول فوائد غض البصر: «في غض البصر عن المحارم ثلاثة فوائد:

١ ـ حلاوة الإيمان.

٢ ـ نور القلب وصحة الفراسة.

٣ ـ قوة القلب وثباته وشجاعته، فيعطيه الله بقوته سلطان النصرة كما أعطاه بنوره سلطان الحجة فيجمع له بين السلطانين فيهرب الشيطان منه»[3].

---

(١) تزكية النفوس ص ١١.

(٢) سورة الأنعام الآية: ١٢٢.

(٣) إغاثة اللهفان ص ٧٨، ٧٩.

سادساً: المحافظة على صحة القلب وسلامته:

متى ما تأكد المرء من صحة قلبه وسلامته فإنه مطالب بالمحافظة عليه، «فالقلب محتاج إلى ما يحفظ عليه قوته وهو الإيمان وأوراد الطاعات وإلى حمية من المؤذي الضار وذلك باجتناب الآثام والمعاصي وأنواع المخالفات وإلى استفراغه من كل مادة فاسدة تعرض له وذلك بالتوبة النصوح واستغفار غافر الخطيئات»(١)، وكذلك كل ما يورث القلب إيماناً من العلم النافع والعمل الصالح فتلك أغذية له(٢) بها يصح القلب ويستقيم، فاستقامة القلب واعتداله واقتصاده وحميته وعاقبته وصلاحه متلازمة(٣).

---

(١) طب القلوب لابن قيم الجوزية ص ١٦٣.
(٢) الفتاوى جـ ١٠ ص ١٣٦.
(٣) الفتاوى جـ ١٠ ص ١٣٨.

يقول ابن تيمية رحمه الله في بيان ما يحفظ على الإنسان صحة قلبه: «فأخبر (أي الله) أنه فطر عباده على إقامة الوجه حنيفاً وهو عبادة الله وحده لا شريك له، فهذه من الحركة الطبيعية المستقيمة المعتدلة للقلب وتركها ظلم عظيم اتبع أهله أهواءهم بغير علم، ولا بد لهذه الفطرة والخلقة وهي صحة الخلقة من قوت وغذاء يمدها بنظير ما فيها مما فطرت عليه علماً وعملاً، ولهذا كان تمام الدين بالفطرة المكملة بالشريعة المنزلة»(١) ويقول: فصحة القلب تحفظ باستعمال أمثال ما فيها أو هو ما يقوى العلم والإيمان من الذكر والتفكر والعبادات المشروعة، والمرض يزول بالضد، فتزال الشبهات بالبينات وتزول محبة الباطل ببغضه ومحبة الحق»(٢).

---

(١) الفتاوى جـ ١٠ ص ١٤٦، ١٤٧.

(٢) الفتاوى جـ ١٠ ص ١٤٥.

سابعاً: منهج أهل السنة في التزكية:

لما كان صلاح القلب هو حياته، وكانت هذه الحياة مرتبطة بخلوه من كل ما يحول بينه وبين معاني الإيمان من الشرك والنفاق وسوء الأخلاق فإن منهج أهل السنة والجماعة مستمد من هذه الحقيقة وتمثلت دعائمه في:

١ ـ التزكية بالتوحيد.
٢ ـ التزكية بفعل الواجبات وترك المحرمات.
٣ ـ التزكية بفعل النوافل المشروعة(١).

ومصادر هذا المنهج هي الكتاب والسنة ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ۝١٥ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ

---

(١) التزكية بين أهل السنة والصوفية ص ١٧ ـ ٣١.

﴿ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾ (١) «تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي أبداً كتاب الله وسنتي» (٢) مصداقاً لقوله تعالى: ﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾﴾ (٣) ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ (٤) نسأل الله أن يرزقنا العمل بهذا المنهج حتى نكون من المفلحين ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾﴾ (٥) ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾﴾ (٦).

---

(١) سورة المائدة الآيتان: ١٥، ١٦.

(٢) رواه مالك في الموطأ في القدر رقم (٣)، ورواه الحاكم ١/٩٣ موصولاً وغيره بلاغاً من حديث ابن عباس وفي إسناده ضعف، وجاء أيضاً من حديث أبي هريرة وعمرو بن عوف المزني واسنادهما ضعيف جداً.

(٣) سورة الزخرف الآية: ٤٣.

(٤) سورة الأنعام الآية: ١٥٣.

(٥) سورة الشمس الآيتان: ٩، ١٠.

(٦) سورة الأعلى الآيتان: ١٤، ١٥.

الفصل الثاني:

تأثر سلوك الإنسان بحال قلبه

وفيه:

♥ علاقة حال القلب بالسلوك.
♥ أثر حالة القلب في علاقة الإنسان بالآخرين.
♥ مدار الأمر على القلب.

المبحث الأول: علاقة حال القلب بالسلوك

لما كان سلوك الإنسان هو المظهر الخارجي لمكنونات نفسه، وكانت أعمال الجوارح ثمرة لأعمال القلب صحّ أن يقال إن سلوك الإنسان من حيث الصحة والسداد والرشاد أو الغي والفساد هو صورة صادقة لحال قلبه من السلامة والمرض والموت، فالله سبحانه وتعالى رتّب صلاح الأعمال على صلاح القلوب ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾(1) كما رتّب الرسول ﷺ استقامة الإيمان على استقامة القلب، قا أنس بن مالك رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ: «لا يستقيم إيمان العبد حتى يستقيم قلبه ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه ولا يدخل الجنة رجل لا يأمن جاره

(1) سورة الشعراء الآيتان: ٨٨، ٨٩.

بوائقه»(١).

بل إن من تدبر نصوص القرآن التي أوردناها في الفصل الأول من هذا الكتاب بمباحثه المختلفة لا يصعب عليه إدراك هذه الحقيقة فإنه يرى أن الله سبحانه وتعالى قد أثبت لأصحاب القلوب الحية السليمة ضروباً من السلوك تناسب حياتها وسلامتها، مرّ بيانها في مبحث أنواع القلوب باعتبار حالها ﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ ﴾(٢) ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾ ﴾(٣). كما أثبت لأصحاب القلوب الميتة كذلك ضروباً من السلوك تناسب حالها ﴿ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴿٥﴾ ﴾(٤) ﴿ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ ﴾(٥) ﴿ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ

---

(١) رواه الإمام أحمد جـ ١٩٨/٣، وفيه علي بن مسعدة وهو لا يحتج به.

(٢) سورة الأنعام الآية: ٣٦.

(٣) سورة المؤمنون الآيتان: ٦٠، ٦١.

(٤) سورة فصلت الآية: ٥.

(٥) سورة النساء الآية: ١٥٥.

يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ ﴾(١) ﴿ ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ
مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ
وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ ﴾(٢) ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓاْ
أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾ ﴾(٣) ﴿ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾(٤) وكذلك
فعل بشأن القلوب المريضة ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا
تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ﴾(٥) ﴿ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم
مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ﴾(٦) ﴿ كَذَٰلِكَ
قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾(٧) ﴿ إِنَّمَا
يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ
فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾(٨) ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ
قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ
ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ
ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ

---

(١) سورة المطففين الآية : ١٤ .
(٢) سورة الأنبياء الآيات : ١ ـ ٢ ـ ٣ .
(٣) سورة محمد الآية : ١٦ .
(٤) سورة الحديد الآية : ١٦ .
(٥) سورة آل عمران الآية : ٧ .
(٦) سورة المائدة الآية : ٥٢ .
(٧) سورة البقرة الآية : ١١٨ .
(٨) سورة التوبة الآية : ٤٥ .

ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾ ﴾[1] ﴿ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾ ﴾[2]. وهي نصوص كلها تؤكد حقيقة ارتباط سلوك الإنسان بحال قلبه.

وبيَّن الله سبحانه وتعالى مكانة القلب في أعمال الإنسان ﴿ لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ﴾[3] ﴿ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ ﴾[4] ﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾ ﴾[5] ﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾[6] ﴿ وَلَا تَكْتُمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ ۗ ﴾[7]

---

(١) سورة البقرة الآيات: ٢٠٤ ـ ٢٠٥ ـ ٢٠٦.
(٢) سورة الفتح الآية: ١٢.
(٣) سورة البقرة الآية: ٢٢٥.
(٤) سورة الحجرات الآية: ١٤.
(٥) سورة الحجرات الآية: ٧.
(٦) سورة الأنفال الآية: ٢٤.
(٧) سورة البقرة الآية: ٢٨٣.

﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ ﴾[1] ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾ ﴾[2] ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ ﴾[3] ﴿ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ﴾[4] (*) .

وقد استقر هذا المعنى في نفوس السلف الصالح ، وعبر عنه بصور مختلفة ، فهذا شيخ الإسلام ابن تيمية يقرر أن الجانب الروحي أو النفسي[5] يلعب دوراً مهماً في تقرير السلوك الذي يحقق الخير أو الشر والذي يترتب عليه الشقاء أو

---

(١) سورة الحج الآية : ٣٢ .
(٢) سورة الحجرات الآية : ٣ .
(٣) سورة محمد الآية : ٢٤ .
(٤) سورة الأحزاب الآية : ٥ .
(*) هذه النصوص سبق تحديد مكانها من كتاب الله فيما مضى .
(٥) هو يرى أن الروح والنفس يطلقان على مسمى واحد، النظرية الخلقية عند ابن تيمية، عبد الله عفيفي، مركز الملك فيصل، ط ١، ١٤٠٨ هـ.

السعادة[1].

وابن قيم الجوزية يقول[2]: «فإن من عدم القلب الواعي عن الله لم ينتفع بكل آية تمر عليه ولو مرت به كل آية ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ۝١٠٥﴾[3]».

ولا شك أن القلب إذا استنار بنور التوحيد أدرك ما ينفعه وما يضره وانعكست آثاره على الجوارح، فكان على المسلم أن يسعى لإصلاح قلبه ما استطاع (٤).

يقول الشيخ عبد الرزاق عفيفي (٥) معلقاً على كلام لابن تيمية يصف فيه بعض المشائخ بأنه له أحوالاً زكية

---

(١) المرجع السابق، المدرك نفسه.

(٢) مفتاح دار السعادة جـ ١ ص ١٦٦.

(٣) سورة يوسف الآية: ١٠٥.

(٤) انظر: تأملات في العقل والسلوك، محمد بن إبراهيم التويجري ص ٣١.

(٥) الوصية الكبرى لابن تيمية، تحقيق علي حسن علي عبد الحميد، ص ٢٦.

وطريقة مرضية وله مكاشفات وتصرفات يقول: «المراد استنارة القلب وصفاء البصيرة ونفوذ الفكر وإحقاق الحق وقوة الفراسة بتقوى الله والوقوف عند حدوده كما قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا﴾(١) حتى المرائى في المنام من حيث الصلاح والاستقامة لا تخرج عن هذه القاعدة.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «فلا يظنّ أحد أن هذا الدجال الذي رآه هو ربّه، ولكن الذي يقع لأهل حقائق الإيمان من المعرفة بالله ويقين القلوب ومشاهداتها وتحليلاتها هو على مراتب كثيرة، قال النبي ﷺ لما سأله جبريل عن الإحسان قال: الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه» وقد يرى المؤمن ربه في المنام في صور متنوعة على قدر إيمانه ويقينه، فإذا كان إيمانه صحيحاً لم يره إلا في صورة حسنة، وإن كان في إيمانه

(١) سورة الأنفال الآية: ٢٩.

نقص رأى ما يشبه إيمانه»(١) .

حتى الدعاء مرتبط بحال القلب يقول الرسول ﷺ : «القلوب أوعية وبعضها أوعى من بعض، فإذا سألتم الله عز وجل أيها الناس فاسألوه وأنتم موقنون بالإجابة فإن الله لا يستجيب لعبد دعاه عن ظهر قلب غافل»(٢) ويقرر ابن حزم أنه: «ليس بين الفضائل والرذائل ولا بين الطاعات والمعاصي إلا نفار النفس وأنسها فقط، فالسعيد من أنست نفسه بالفضائل والطاعات ونفرت من الرذائل والمعاصي، والشقي من أنست نفسه بالرذائل والمعاصي ونفرت من الفضائل والطاعات وليس هناك إلا صنع الله وحفظه»(٣).

---

(١) الوصية الكبرى، ص ٤٢ ـ ٤٣ .

(٢) انظر: الحديث في مسند الإمام أحمد، تحقيق أحمد شاكر (٦٦٥٥) جـ ١٠ ص ١٤٢ قال أحمد شاكر إسناده صحيح . قلت: ولكن في إسناده عبد الله بن لهيعة وهو لا يحتج به على الأرجح وفيه بكر بن عمرو وهو ليس بالمشهور.

(٣) الأخلاق والسير ص ١٨ .

ومن ثم فإن القلب الحي الصافي المشرق من مقومات الانتصار على النفس (١) «ليس الإيمان بالتمني ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل» (٢) ولهذا فـ «إن الله لم يشبه هذا الدين في ثباته واستقراره بصخرة صماء لا نمو فيها ولا حياة إنما شبهه بشجرة طيبة ثابتة نامية مثمرة فالأصل الثابت هو التوحيد والعبودية لله والإيمان بالغيب والنبوة واليوم الآخر، وأما أكلها: فالتقوى ورقابة الله والإخلاص لله والجهاد والاجتهاد» (٣) والكلمة الطيبة التي شبهت بالشجرة الطيبة مستقرها القلب السليم الخالي من الشرك والنفاق أعاذنا الله منها جميعاً وذلك ما يؤكد ارتباط السلوك بحال القلب «فالعبادة بجميع أنواعها إنما تصدر من تأله القلب بالحب والخضوع والتذلل رغباً ورهباً وهذا ما لا يستحقه إلا الله» (٤).

---

(١) فتحي يكن، ماذا يعني انتمائي للإسلام.

(٢) قيل إنه من كلام الحسن البصري.

(٣) خصائص مدرسة النبوة، د. كمال محمد عيسى، ص ٤١، دار الشروق.

(٤) عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ، شرح فتح المجيد، ص ٣٢.

المبحث الثاني: أثر حالة القلب في علاقة الإنسان بالآخرين

علاقة الإنسان بالآخرين من حيث سلوكه تجاههم أو سلوكهم تجاهه أحد مظاهر السلوك الإنساني العام الذي نظمته شريعتنا الغراء ووضعت له من الضوابط والقواعد ما يجعله النموذج المثالي في العلاقات الإنسانية.

وكما كان مدار الأمر في صلة الإنسان بربه هو القلب السليم فإن مدار الأمر أيضاً في هذا الجانب من السلوك إنما هو على القلب، فإن كان القلب سليماً جاءت العلاقات البشرية المرتبطة به في صورة سوية جميلة وأثمرت كل المعاني الإنسانية الخيرية الفاضلة في التعامل بين بني البشر، قال تعالى في حق نبيه ﷺ: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ

﴿ حَوْلِكَۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ ﴾[1] يقول مختصر تفسير الشوكاني: «والمعنى أن لينه لهم ما كان إلا بسبب الرحمة العظيمة من الله تعالى لتأليف قلوب أصحابه واستقامة أمر الدين»[2].

ويقول جلّ جلاله بشأن المؤمنين: ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا ﴾[3]. المراد الأوس والخزرج كانت بينهم عصبية شديدة وحروب عظيمة فألف الله بين قلوبهم بالإيمان برسول الله ﷺ، وقيل أراد التأليف بين المهاجرين والأنصار» [4] وهذا نص ظاهر الدلالة في مبلغ ما للقلب المحشو بالإيمان من أثر في إقامة علاقات مثلى بين البشر.

ومثله ما امتن الله به على نبيه ﷺ في قوله جلّ جلاله:

---

(١) سورة آل عمران الآية: ١٥٩. (٣) سورة آل عمران الآية: ١٠٣.

(٢) زبدة التفسير ص ٨٩. (٤) زبدة التفسير ص ٢٣٦.

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾ ﴾[1] فهو بين الدلالة على هذا المعنى بحيث لا يحتاج إلى تعليق .

أما إن كان القلب ميتاً أو مريضاً فإن العلاقات البشرية المرتبطة به تكون في غاية السوء وتثمر كثيراً من المعاني الرديئة والصور السيئة في التعامل بين البشر مصداق ذلك قوله تعالى : ﴿ لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾[2] «أي بعضهم غليظ على بعض وقلوبهم مختلفة ونياتهم متباينة ، أي أن اجتماعهم إنما هو في الظاهر مع تخالف قلوبهم في الباطن مختلفة آراؤهم ، مختلفة شهادتهم ، مختلفة أهواؤهم»[3] .

---

(١) سورة الأنفال الآيتان: ٦٢ ، ٦٣ .

(٢) سورة الحشر الآية : ١٤ .

(٣) زبدة التفسير ص ٧٣٢ .

وفي هذا ما فيه من تمزق في العلاقات البشرية واختلال في الحياة الإنسانية التي قوامها هذه القلوب الخربة والمقصود هو البيان والإيضاح وليس الاستقصاء فيما تقدم مقنع وغنية.

المبحث الثالث: مدار الأمر على القلب

لن يصعب على من تتبع الآيات القرآنية التي سيقت في الفصل الأول من الكتاب أن يدرك بسهولة أن القلب هو حقيقة الإنسان، ومن عجيب صنع الله أن جعل بصحته الحسية وبقائه وانتظام دورته حياة الجسد، وجعل بطهارته وسلامته من الآفات حياة الروح[١].

والقلب وهو بهذه المثابة هو موطن الإدراك والعلم من الإنسان، وهو المخاطب والمطالب والمعاتب، وهو مكمن المشاعر من حبّ وبغض ووساوس وخطرات، وهو قبل ذلك موضع الإيمان والكفر والإنابة والإصرار والطمأنينة والاضطراب، فهو العالم بالله المتقرب إليه والعامل له والساعي إليه، والجوارح أتباع وخدم، قال

---

(١) مفتاح دار السعادة ص ٩٣.

أبو هريرة رضي الله عنه: «القلب ملك والأعضاء جنوده فإن طاب الملك طابت جنوده إذا خبث خبثت جنوده»، وهو المقبول عند الله إذا سلم من غير الله والمحجوب عنه إذا استغرق بغير الله فهو مناط السعادة إذا زكاه صاحبه والشقاء إذا دنسه ودساه، فهو في الحقيقة المطيع لله وإنما تنتشر على الجوارح من العبادات أنواره، وهو العاصي المتمرد على الله وإنما الساري إلى الأعضاء من الفواحش آثاره، وهو الذي إذا عرفه الإنسان عرف نفسه وإذا جهله جهل نفسه، ومن لم يعرف نفسه لم يعرف ربه، وبإظلامه واستنارته تظهر محاسن الظاهر ومساويه(١)».

وبعد هذا الاجمال يحسن بعض التفصيل، فقد أخبر الله سبحانه وتعالى أن القلب موضع الإيمان ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ

(١) انظر: القلب (مكانته، أحواله، مرضه، شفاؤه) أحمد عز الدين البياتوني، دار السلام، ص ١١ ـ ١٢.

لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾[1] ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ ﴾[2] وكذلك هو موضع الكفر بالنص نفسه، ومواطن النفاق والارتياب ﴿ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾[3] وكذلك هو موضع النية والإخلاص بالنصوص التي رتبت المؤاخذة على ما استقر فيه ولقوله ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى»[4] وقوله: «الإخلاص سر من سرى استودعته قلب من أحببت من عبادي»[5] وهو كذلك موطن العزم ﴿ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ

(١) سورة الزمر الآية: ٢٢.

(٢) سورة الأنعام الآية: ١٢٥.

(٣) سورة التوبة الآية: ٤٥.

(٤) الحديث متفق عليه.

(٥) الحديث رواه القشيري نقلاً عن كتاب القلب، وقيل إنه لا يصح.

مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾ ﴾[1] وقوله ﷺ: «إذا التقى المسلمان بسيفهما فالقاتل والمقتول في النار قيل يا رسول الله هذا القاتل فما بال المقتول قال إنه كان حريصاً على قتل صاحبه»[2] والقلب كذلك موضع الأمانة ففي الحديث المتفق عليه: «إن الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال، ثم نزل القرآن فعلموا من القرآن وعلموا من السنة»[3] وهو موضع التقوى ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ ﴾[4] ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ﴾[5] وهو موضع البر والإثم ﴿ وَلَا تَكْتُمُواْ ٱلشَّهَـٰدَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ ﴾[6] ولقوله ﷺ: «جئت تسأل عن البر.. استفت قلبك»[7] والقلب كذلك

(١) سورة الحج الآية: ٢٥.
(٢) الحديث متفق عليه.
(٣) أخرجه الشيخان.
(٤) سورة الحج الآية: ٣٢.
(٥) سورة الحجرات الآية: ٣.
(٦) سورة البقرة الآية: ٢٨٣.
(٧) الحديث رواه أحمد والدارمي.

موضع الذكرى ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ ﴾[1] والحديث: «إذا أراد الله بعبده خيراً جعل له واعظاً من قلبه يأمره وينهاه»[2].

«ولما علم عدو الله إبليس أن المدار على القلب والاعتماد عليه أجلب عليه بالوساوس وأقبل بوجوه الشهوات إليه وزين له من الأحوال والأعمال ما يصده عن الطريق وأمده من أسباب الغي بما يقطعه عن أسباب التوفيق ونصب له من المصايد والحبائل ما إن سلم من الوقوع فيها لم يسلم من أن يحصل له بها التعويق، فلا نجاة من مصايده ومكايده إلا بدوام الاستقامة والاستعانة بالله تعالى والتعرض لأسباب مرضاته والتجاء القلب إليه وإقباله عليه في حركاته وسكناته والتحقق بذل العبودية الذي هو أولى ما تلبس به الإنسان ليحصل له الدخول في ضمان ﴿إن عبادي ليس لك عليهم سلطان﴾، فهذه الإضافة هي القاطعة بين العبد وبين الشيطان وحصولها

---

(١) سورة ق الآية: ٣٧.

(٢) الحديث رواه الديلمي، وهو ليس بصحيح.

في ضمان ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ﴾[١] ، فهذه الإضافة هي القاطعة بين العبد وبين الشيطان وحصولها سبب تحقيق مقام العبودية لرب العالمين ، وإشعار القلب إخلاص العمل ودوام اليقين ، فإذا أشرب القلب العبودية والإخلاص صار عند الله من المقربين وشمله استثناء ﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾»[٢] .

وما دام أن أشرف ما في الإنسان قلبه وهو الذي عليه المعول فإنه ينبغي أن يفهم أن معرفة القلب وصفاته أصل الدين وأساس طريقة السالكين[٤] ﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾[٥] وذلك بأن يمنعه معرفة الله ومراقبته .

ثم إن : «القلب بأصل فطرته قابل للهدي ، وبما وضع فيه

---

(١) سورة الحجر الآية : ٤٢ . (٢) سورة الأنفال الآية : ٢٤ .

(٣) سورة ص الآية : ٨٣ .

(٤) طب القلوب لابن قيم الجوزية ص ١٨٤ .

(٥) انظر : منهاج القاصدين ص ١٤٨ .

من الشهوة والهوى مائل عن ذلك والتطارد فيه بين جندي الملائكة والشياطين دائم إلى أن ينفتح القلب لأحدهما فيتمكن ويستوطن ويكون اجتياز الثاني اختلاساً كما قال تعالى: ﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤﴾[1] وهو الذي إذا ذكر الله خنس وإذا وقعت الغفلة انبسط، ولا يطرد جند الشياطين من القلب إلا ذكر الله تعالى فإنه لا قرار له مع الذكر»[2].

وهذه المكانة العظيمة للقلب في حياة الإنسان وهذا الخطر العظيم الذي يتهدده كل ذلك يجعل المسلم دائم التضرع لله سبحانه وتعالى بأن يهدي قلبه وأن يثبته على دينه: «يا مقلِّب القلوب ثبت قلبي على دينك»[3] ذلك أنه: «ما من قلب إلا بين اصبعين من أصابع الرحمن إن شاء أقامه وإن شاء أزاغه»[4].

ومن خلال استعراض النصوص القرآنية التي

---

(١) سورة الناس الآية: ٤.

(٢) المرجع السابق نفسه والمدرك نفسه. (٣) سبق تخريجه.

(٤) أخرجه النسائي ٧٧٣٨ في الكبرى وابن ماجه ١٩٩ من حديث النواس بن سمعان وهو حديث صحيح وجاء من غيره.

تناولت قضية القلوب يستطيع المرء أن يلحظ تركيزاً على جوانب عليها مدار حياة الإنسان فقضية الخوف والأمن من القضايا التي تشغل بال الإنسان في القديم والحديث، ونجد أن مدار الأمر فيها على القلوب ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ﴾(1) ﴿وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ﴾(2) ﴿وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾(3) ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾(4) ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾(5) ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾(6).

وقضية الفاعلية والإيجابية أو السلبية في هذه الحياة أيضاً المعول فيها إنما هو على القلب ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا

---

(1) سورة التوبة الآية: ١١٧.

(2) سورة الأحزاب الآية: ٢٦.

(3) سورة الأحزاب الآية: ١٠.

(4) سورة الرعد الآية: ٢٨.

(5) سورة الأنعام الآية: ٨٢.

(6) سورة الفتح الآية: ٤.

سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾﴾[1] ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾﴾[2] وبيان ذلك في قول الرسول ﷺ: «تعرض الفتن على القلوب كالحصير عوداً عوداً فأي قلب أشربها نكت فيه نكتة سوداء وأي قلب أنكرها نكت فيه نكتة بيضاء حتى تصير على قلبين على أبيض مثل الصفا فلا تضره فتنة ما دامت السماوات والأرض، والآخر أسود مربادا كالكوز مجخياً لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً إلا ما أشرب من هواه»[3] وليس بعد بيان الله ورسوله ﷺ بيان.

وقضية الإدراك عمادها القلب ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾[4] ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾[5] ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا۟

---

(١) سورة المؤمنون الآيتان: ٦٠، ٦١.
(٢) سورة الأحزاب الآية: ١٢.
(٣) رواه مسلم ١٤٤.
(٤) سورة الحج الآية: ٤٦.
(٥) سورة ق الآية: ٣٧.

ٱلنَّجۡوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ هَلۡ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثۡلُكُمۡۖ أَفَتَأۡتُونَ﴾[1]
﴿وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا ۝٢٨﴾[2].

وفي بيان تلك الحقيقة يقول ابن تيمية رحمه الله: «وكذلك من نظر إلى الأشياء بغير قلب أن استمع إلى كلمات أهل العلم بغير قلب فإنه لا يعقل شيئاً فمدار الأمر على القلب»[3]، ويقول سيد قطب رحمه الله: «دلائل الإيمان والهدى حاضرة في الوجود وفي الرسالات تدركها القلوب المفتوحة والبصائر المكشوفة»[4] ويقول عباس حسن السيسي: «إن للداعية قلباً ولا يستجاب لمن لا قلب له وقلب المؤمن مصدر توجيه واستشعار»[5] ولا شك أن البصيرة التي يجعلها

---

(١) سورة الأنبياء الآيات: ١ ـ ٢ ـ ٣.
(٢) سورة الكهف الآية: ٢٨.
(٣) رسالة في القلب ص ٩.
(٤) الظلال جـ ٣ ص ١٤٠١.
(٥) الطريق إلى القلوب ص ٢٣، مكتبة المنار.

الله في قلوب المؤمنين أزكى في المعرفة من حظ البصر ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٢٩﴾ ﴾ (١) ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ ﴾ (٢) فإن البصر إنما هو بنور الإيمان والعلم، وعلى هذا فالقلب الحي هو آلة السمع، ومن هنا يقع التفاوت في الفقه عن الله والفهم عنه والابتهاج والنعيم بسماع كلام الله فيأنس الإنسان.. وذلك لأن هذا الأنس المذكور يكون مبدؤه الكشف عن أسماء الصفات التي يحصل عنه الأنس ويتعلق بها كاسم: «الجميل والبر واللطيف والودود والحليم والرحيم ونحوها ثم يقوى التعلق بها حتى يكون معه طيب الحياة وقرة العين ولذة القلب وبهجة الروح مع كمال العافية بلا محنة والهداية بلا فتنة فتخف أعباء المسير ويزول كل فتور ويظل القلب

---

(١) سورة الأنفال الآية: ٢٩.

(٢) سورة الأعراف الآية: ٢٠١.

في ازدياد من معاني الخير دائماً»(١) .

وكما كان المعول على القلب في قضية الإدراك فإن المعول على القلب كذلك في قضية الكسب والمؤاخذة على العمل ﴿ لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَـٰنِكُمْ وَلَـٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ﴾(٢) ﴿ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَـٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ﴾(٣) ﴿ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ ﴾(٤) ﴿ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ ﴾(٥) ﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ﴾(٦) قال رسول الله ﷺ : «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»(٧) .

«والأعمال إنما تتفاضل ويعظم ثوابها بحسب ما يقوم بقلب العامل من الإيمان والإخلاص»(٨) .

---

(١) ابن قيم الجوزية ص ٤٦١ .
(٢) سورة البقرة الآية : ٢٢٥ .
(٣) سورة الأحزاب الآية : ٥ .
(٤) سورة الأنفال الآية : ٧٠ .
(٥) سورة النحل الآية : ١٠٦ .
(٦) سورة الأحزاب الآية : ٥١ .
(٧) أخرجه مسلم .
(٨) بهجة القلوب ص ٢١ .

«وقد دلت نصوص الكتاب والسنة الكثيرة على أن الإيمان يشمل ما في القلوب من العقائد الصحيحة وأعمال القلوب من الرغبة في الخير والرهبة من الشر ومن أعمال الجوارح ولا يتم ذلك إلا بالثبات عليه»(١).

ولما كان صحابة رسول الله ﷺ هم أزكى الناس قلوباً بعد رسول الله ﷺ وكانوا أفضل الناس بعد الأنبياء سلام الله عليهم فأتوا بذلك فهما لا يدركه اللاحقون. قال ابن مسعود رضي الله عنه: «إن الله نظر إلى قلوب العباد فوجد قلب محمد ﷺ خير قلوب العباد فاصطفاه لنفسه فابتعثه برسالته ثم نظر في قلوب العباد بعد قلب محمد ﷺ فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد فجعلهم وزراء نبيه يتلقون عنه دينه»(٢).

وقد رد الله سبحانه وتعالى دعاوى المشركين الباطلة ضد محمد ﷺ بحال قلبه ﷺ: ﴿فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخۡتِمۡ

---

(١) المرجع نفسه ص ٣١.

(٢) أخرجه أحمد جـ ١/ ٣٧٩ وإسناده جيد.

عَلَىٰ قَلْبِكَۗ﴾(١) كما رد على الأعراب دعوى الإيمان بحال قلوبهم ﴿ ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمْۖ﴾(٢) .

وكما كانت قضية الأمن والخوف في الدنيا وثيقة الصلة بالقلب كانت القضية نفسها في الآخرة أيضاً ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾(٣) ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ﴿٧﴾ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾﴾(٤) ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْآزِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَۚ﴾(٥) وقصة الأنصاري الذي أبلغ الرسول ﷺ الصحابة أنه من أهل الجنة عندما رصد عبد الله بن عمرو حاله وسأله أجابه بقوله: «ما هو إلا ما رأيت غير أنني لا أجد على أحد من المسلمين في نفسي غشاً ولا حسداً خيراً أعطاه الله إياه»(٦) بالغة الدلالة على مكانة القلب السليم في تحقيق الأمن يوم القيامة.

---

(١) سورة الشورى الآية: ٢٤.
(٢) سورة الحجرات الآية: ١٤.
(٣) سورة الشعراء الآية: ٨٩.
(٤) سورة النازعات الآيات: ٦ ـ ٧ ـ ٨.
(٥) سورة غافر الآية: ١٨.
(٦) الفتاوى جـ ١٠ ص ١١٩.

وأبلغ من ذلك قوله ﷺ: «يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وفي قلبه وزن شعيرة من خير ويخرج من النار من قال لا إله إلا الله وفي قلبه وزن برة من خير ويخرج من النار من قال لا إله إلا الله وفي قلبه وزن ذرة من خير»(١)، وفي رواية أخرى: «من إيمان مكان خير» ويقابل الأمن المستفاد من هذه النصوص النبوية الخوف المتضمن في قوله ﷺ: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر.. الكبر بطر الحق وغمط الناس»(٢).

وكان السلف الصالح يدركون مكانة القلب السليم في تحقيق السلامة يوم القيامة ويبلغون غاية الجهد في تزكية قلوبهم وتنقيتها من الشوائب. سئل الجنيد كيف السبيل إلى الانقطاع إلى الله تعالى قال: «توبة تحل الإصرار وخوف يزيل التسويف ورجاء يبعث على قصد مسالك العمل، وذكر الله على اختلاف الأوقات، وإهانة

---

(١) رواه البخاري، كتاب الإيمان.

(٢) رواه مسلم.

النفس بقربها من الأجل وبعدها من الأمل قيل: فبم يصل العبد إلى هذا؟ فقال: بقلب مفرد فيه توحيد»[1].

والعلم حياة هذا النوع من القلوب به يبلغ العبد منازل الأخيار والدرجات العلى في الدنيا والآخرة[2] مع أن مجرد العلم لا يحصل به الاهتداء إن لم يعمل به[3].

اللهم ارزقنا علماً نافعاً وعملاً صالحاً متقبلاً.

---

(١) تزكية النفوس ص ٢٣.

(٢) طب القلوب لابن قيم الجوزية.

(٣) الفتاوى جـ ١٠ ص ١٠٧.

الخاتمة

بعد أن منّ الله بإتمام هذا الكتاب الذي أسأل الله أن يجعله عملاً صواباً خالصاً لوجهه فإنه لا يسعني في ختامه إلا أن أوصي نفسي وإخواني بوصية الله إيانا والذين من قبلنا في قوله جلّ جلاله: ﴿ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾ ﴾ (١) كما أوصيهم بالحرص على سلامة قلوبهم وتفقدها ورعايتها دائماً وذلك بتحقيق الاستجابة لله سبحانه وتعالى والاستقامه حتى تتحقق لهم البشرى في الدنيا والآخرة: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ (٢) ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ (٣) وأحذرهم من الغفلة

---

(١) سورة النساء الآية: ١٣١.

(٢) سورة فصلت الآية: ٣٠.

(٣) سورة الأحقاف الآية: ١٣.

وأورد في هذا السياق أبياتاً نقلتها من تفسير ابن كثير رحمه الله.

يا من تصبح إلي داعي الشقاء وقد
نادى به الناعيان الشيب والكبر
إن كنت لا تسمع الذكر ففيم ترى
في رأسك الداعيان السمع والبصر
ليس الأصم ولا الأعمى سوى رجل
لم يهده الهاديان العين والأثر
لا الدهر يبقى ولا الدنيا ولا الفلك
الأعلى ولا النيران الشمس والقمر
ليرحلن عن الدنيا وإن كرها
فراقها الثاويان البدو والحضر

وكلاماً مفيداً آخر قال: «أبو حازم لسليمان بن عبد الملك حينما سأله ما لنا نكره الموت فقال أبو حازم: لأنكم أعمرتم دنياكم وخربتم أخراكم فما تحبون الانتقال من العمران إلى الخراب قال سليمان ليت شعري حالنا عند الله فقال أبو حازم تجده عند قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ

لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ [1] قال سليمان: فكيف القدوم على الله، فقال أبو حازم: أما المطيع فكالغائب يقدم على أهله فرحاً مسروراً، وأما العاصي فكالعبد الآبق يقدم على سيده خائفاً محزوناً، قال سليمان: أوصني وأوجز، فقال أبو حازم: اتق الله أن يفقدك حيث أمرك أو يجدك حيث نهاك» [2].

وهي في نظري محاورة تستحق الاهتمام لذلك أوردها في ختام كتابي هذا الذي أرجو أنه يختم لمؤلفه وقارئه بالخاتمة الحسنة.

وبعد فإن ما في هذا الجهد من توفيق فمن الله وما فيه من خلل أو قصور فمن نفسي ومن الشيطان والله المسئول أن يعفو ويتجاوز وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

---

(١) سورة الانفطار الآية: ١٣.

(٢) تأملات في العقل والسلوك ص ٤٨، ٤٩.

الفهرس

المقدمة ٥

الفصل الاول ١٣

المبحث الاول ١٥

المبحث الثاني ٢٥

المبحث الثالث ١٠٥

المبحث الرابع ١٣٥

المبحث الخامس ١٥٧

الفصل الثاني ١٨٧

الخاتمة ٢١٩